سلسلة ضوء في المجرة

الذين لم يولدوا بعد

د. أحمد خيري العمري

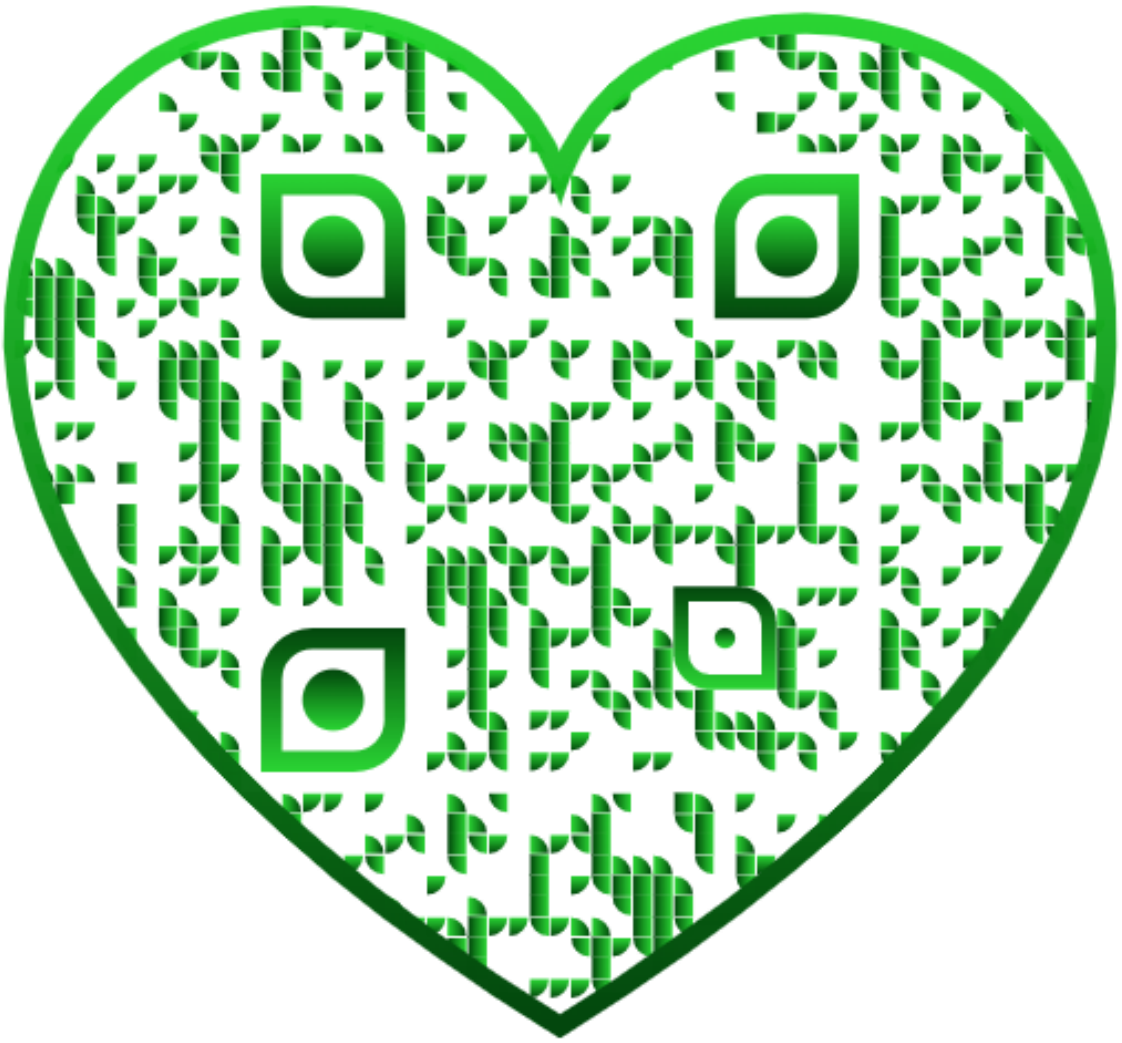

الطبعة السادسة

الطبعة الأولى لقيام

1435هـ _ 2014م

تنبيه

جميع الحقوق محفوظة لقيام _ أحمد خيري العمري، يمنع طبع هذا الكتاب بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الطرق إلا بإذن خطي من الكاتب.

القرآن..لأمة قائمة

quran4nahda.com
quran4qyam@gmail.com

Qeeyamقيام
Qeeyam Ommah

إهداء

إلى هـ.ب، طبعاً..

بصفته الشخصية أولاً..

وبصفته ممثلاً عن «الجيل»، ثانياً..

مـن بعيـد يـأتي ليزورنـا، وكل آتٍ قريـب. يقطـع الوديـان والجبال والسـهول. يتجـاوز الحـدود والبحـار والمحيطـات. يتجاهـل التأشـيرة والتعرفـة الجمركيـة. لا يلقـي بـالاً لتقلبـات الأوضـاع السياسـية والتحشـدات العسـكرية... مـن بعيـد يـأتي ليزورنـا وكل آتٍ قريـب.

ننتظـره أحيانـاً بلهفـة، وأحيانـاً نفاجـأ بـه في غمـرة انشـغالنا. مـرة نفـرح بـه ونسـتعد لزيارتـه لنـا، ومـرة نضيـق ونتـبرم ونتمـنى لـو أخرهـا يومـاً واحـداً، وإن كنـا نخفـي ذلـك أدبـاً وتأدبـاً.

من بعيد يأتي ليزورنا، وكل آتٍ قريب.

لا يخلـف موعـد زيارتـه أبـداً. لكـن موعـده يختلـف بيـوم أو يومـين. يأتينـا في السـنة مـرة مثـل مغـترب مشـتاق. فيمكـث عندنـا شـهراً- وأحيانـاً شـهراً إلا يومـاً- كمـا المغتربـين المشـتاقين لكـن المسـتعجلين، يـأتي إلينـا محمـلاً بالحقائـب والأمتعـة، فنهـرول إليهـا، ولا نـكاد نسـلِّم عليـه ونـؤدي الواجـب، حـتى نلتفـت إلى الحقائـب، فنبعـثر محتوياتهـا وهداياهـا الغاليـة، نتفحصهـا ونقيـم أثمانهـا، ونتخاصـم حـول تقاسـمها، ونثرثـر حـول ذلـك طـوال الوقـت، ونصـدع رأسـه بخصوماتنـا.

وعندمـا يذهـب، تكـون حقائبـه فارغـة إلا مـن مشـاكلنا وطلباتنا. لـو كان مثـل كل المغتربـين لأقسـم ألا يـأتي في السـنة القادمـة، لكنـه لا يفعـل ذلـك أبـداً، سـيأتي في كل الأحـوال..

رغـم شـبح الحـرب الـذي يـروح، ويجـيء بالقـرب مـن حدودنـا، رغـم صدودنـا، رغـم عقوقنـا، رغـم نسـياننا ورغـم جحودنا؛يظـل يـأتي إلينـا ويزورنـا..

إنـه هنـاك. لعلـه الآن في الشـارع المجـاور، أو البيـت المجـاور، لعلـه الآن قـد هبـط مـن السـيارة محمـلاً بحقائبه..مـن بعيـد يـأتي إلينـا، وكل آتٍ قريـب.

رمضان على الأبواب، يكاد يطرقها. فلا تفتح له..

* * *

ليس خطأً مطبعياً.

أقول لك: هذه المرة لا تفتح له..

نعـم، هـذه المـرة عندمـا يـأتي رمضـان، لا تفتـح لـه أبوابـك. أَوصِدهـا جيـداً. ارفـع مسـتوى تحصيناتـك. زد مـن الأقفـال والمتاريـس. اقطـع الكهربـاء عـن جـرس البـاب.

وأحكـم إسـدال السـتائر. وضـع القطـن في أذنيـك؛ حـتى لا تشـعر بتأنيـب الضمـير.

ولا تفتح له.

أقول لك: لا داعي، لا تفتح له.

صدق ما أقول: لا تفتح له.

* * *

إذا كنـت سـتفعل بـه ما فعلتـه في المرة السـابقة، لا تفتح له.

إذا كان سيمر على حياتك كما مرَّ في السنوات السابقة، لا تفتح له.

لا داعي لذلك.

إذا كان سيكون مجرد رمضانٍ آخر؛ مجرد ضيفٍ آخر يزورك كل سنة مرة، ويمكث شهراً ثم يمضي دون أن يترك أثراً، فلا تفتح له.

إذا كان سيكون شهراً أخر تجوع وتعطش فيه قليلاً، ثم تتخم وتمتلئ فيه بطنك كثيراً، فمن الآن أقول لك: لا تفتح الأبواب.

إذا كان سيكون شهراً آخر تستقبله **وأنت تشترط عليه أن لا يشترط عليك،** تستقبله وأنت تقرر أن لا عهود ومواثيق دائمية معه، فلا تفتح الأبواب.

إذا سيكون مجرد شهرٍ قمري آخر، يبتدئ برؤية الهلال وينتهي برؤيته أو عدم رؤيته!

فأقول لك: لا تتعب نفسك ولا تكلفها.. ولا تفتح الباب.

.. أقول لك: رمضان على الابواب. يكاد يطرقها - فأطرق برأسك، وفكر، قبل أن تفتح الباب أو لا تفتحه.

* * *

ولأن القضية خاسرة، إذ إنه سيتسلل في كل الأحوال من الثقوب والمسامات وفتحات الشبابيك، وربما مواسير الماء، فإني أقترح عليك اقتراحا آخر.

افتح له، ولكن ليس بالضرورة الأبواب.

في كل مـرة كنـت تسـتقبله فيهـا، كأي ضيـفٍ آخـر، كنـت تفتـح لـه البـاب.

أقـول لـك: مـا دام الأمـر سـيان، فـلا داعـي، إنـه سـيدخل ويتجـاوز الأبـواب في كل الأحـوال، ولـن يبـالي إذا وجدهـا مغلقـة بإحـكام أو مشرعـة مفتوحـة عـلى مصاريعهـا.

ولن يعاتبك على أصول (الاتيكيت).

إنـه لا يريـد منـك أن تفـرش لـه السـجاد الأحمـر، أو تـضيء لـه الأنـوار السـاطعة في الخـارج.

إنه سيدخل في كل الأحوال.

فافتح له فتحاً مختلفاً هذه المرة.

وليكن فتحاً مبيناً.

* * *

في كل مـرة يسـتعد النـاس لاسـتقباله يفكـرون أول مـا يفكـرون في بطونهـم، وموائـد الطعـام والولائـم الـتي سـتمتد فيـه، إفطـاراً وسـحوراً.

والاسـتعداد الأول - المعـروف جـداً- والـذي يبـدأ قبـل دخـول الشـهر بفـترة، هـو التسـوق لاحتياجـات المطبـخ الـذي يـؤدي عـادةً إلى ارتفـاع الأسـعار.

لا أريـد الخـوض في هـذا الموضـوع رغـم أنـه منزلـق شـديد

الإغـراء، لكـن أليـس ذلـك مـا يحـدث عـادة، **ألا يفتـح النـاس جيوبهـم ومحافظهـم** لرمضـان أول مـا يفعلـون؟

أليـس الشـهر مناسـبة لاسـتهلاك – أو عـلى الأقـل إعـداد - أكـبر كميـة ممكنـة مـن أنـواع الطعـام؟

الوعـاظ والخطبـاء الذيـن يتحدثـون عـن الصيـام باعتبـاره ليـس جوعـاً فحسـب، يثـيرون اسـتغرابي واسـتفزازي.لا جـوع في رمضـان، خصوصـاً في سـنوات كهـذه.

النـاس لـم تعـد تجـوع في رمضـان، إنهـم يمتنعـون قليـلاً عـن الطعـام، في عمليـة تـكاد تكـون أشـبه بتحفـيز واسـتثارة لهـم لهجـوم كاسـح لاحـق عـلى الطعـام في موعـد الإفطـار.

لذلـك، لا جـوع حقيقيـاً في رمضـان. النـاس تشـتهي الطعـام طـوال فـترة الصـوم، ثـم تهجـم لتلتهـم عندمـا يحـين موعـد الإفطـار.

* * *

وبعـد ذلـك الهجـوم الكاسـح، والملحمـة الهائلـة، يسـتلقي النـاس وقـد فقـدوا قدرتهـم عـلى الحـراك، وبطونهـم تقرقـر مـن هـول الاقتحـام الـذي حصـل.. لقـد هدهـم الشـبع أكـثر بكثـير ممـا آذاهـم الجـوع.

المنزلـق شـديد الإغـراء كمـا تـرى، لكـني لا أريـد أن أنـزل إلى دون هذا المسـتوى.

رغم أن فيه طبقات أدنى وأدنى..

* * *

الناس كما ترى تفتح لرمضان أبوابها..

أول مـا تفتـح جيوبهـا ومحافظهـا، وأحيانـاً خزائنهـا. وهـذا معلـوم، لا شيء يمكـن أن يهـز تقاليـد الطعـام العتيـدة في هـذا الشـهر..

ثم إنها تفتح أشداقها وأفواهها. وهذا مفهوم طبعاً.

ثـم إنهـا وبعـد ذلـك تفتـح أعينهـا، عـلى اتسـاعها، في اجـترار مـا تبثـه القنـوات مـن مسلسـلات وبرامـج وتسـالٍ رمضانيـة، ويحـدث ذلـك في أثنـاء عمليـة فتـح للأفـواه أخـرى تشـمل طحـن المكسرات الـتي تزدهـر في رمضـان.

* * *

كما ترى، الناس يفتحون لرمضان فتوحات مختلفة..

لكني أتحدث عن فتح آخر، عن فتح كبير ومبين.

يا صديق..

في قلبك مغارات ومغارات.

وفيه أيضاً كهوف مغلقة، وأرض مجهولة وبقاع سرية.

في قلبـك أماكـن لا يعرفهـا أحـد، ولا أنـت، بـل أنـت ذاتـك لا تعرفهـا.

و فيـه كواكـب ومجـرات لـم تطأهـا قـدم إنسـان.. وفيـه غـرف سريـة لا يعـرف مداخلهـا أحـد..

و فيـه صحـارى وغابـات عـذراء، وفيـه قـارات مجهولـة غاطسـة

تحت قاع البحر، وفيه كواكب ونجوم لم يرصدها (تلسكوب) بعد، ومجرات لا تزال تتوالد، وتتراكض في كون متمدد باستمرار..

وفيه أهم من ذلك كله، وقبل ذلك كله، أنت:حفنة من هموم ومشاكل، عقد ومخاوف، هواجس وذكريات..

ماضٍ مليء بالمتاعب، ومستقبل ملبد بالغيوم...

وفيه أيضاً الكثير من الدخان؛ دخان السجائر التي ينفثها قلبك باستمرار، حتى صار يبدو مثل محرك معطوب..

وفي قلبك قفل، وعلى القفل متراس ومزلاج..

وعليه أيضاً بيت عنكبوت، وعش حمامة..

لم يقترب من القفل أحد.

* * *

وأقول لك: افتح لرمضان قلبك.

اترك عمليات الفتح التقليدية الأخرى، وهذا (الرمضان) افعل شيئاً استثنائياً وافتح قلبك لرمضان.

دعك من فتح الجيب والفم والعين..

أقول لك افتح قلبك لرمضان. التفاصيل الباقية غير مهمة..

انظر، مدّ يديك نحو القفل، دع هلاله يكون المنجل الذي يمزق بيت العنكبوت، لا بأس إن طارت الحمامة وارتعبت.

ارفع بيدك المزلاج الضخم - سيصدر صريراً مرعباً- وربما يكون ثقيلاً قليلاً، اجمع قواك واستجمع أعصابك وارفعه..

ومدَّ يدك نحو القفل وافتحه..

دع رمضان يدخل.

* * *

رغم أنك تصوم منذ قرون، دعه يكون رمضانك الأول.

* * *

منذ فترة طويلة، وعبر السنوات المتعاقبة، ومع كل رمضان يهل هلاله، كنت ألاحظ باستغراب شديد، أن الفقهاء والخطباء والوعاظ على المنابر وفي البرامج التلفازية والإذاعية، يعاملون رمضان كما لو كان أول رمضان يمر على المسلمين، أو كما لو أن أحكام الصيام قد فرضت للتو. كل رمضان يعاد الحديث نفسه عن أحكام الصوم وشروطه وأعذاره، وكل التفاصيل الأخرى التي تعاد وتكرر؛ ابتداء من نية الصيام إلى زكاة الفطر.

وكان ذلك يثير استغرابي، هذا التكرار والعجن في أمور يفترض أن تكون من المعلومة بالضرورة، كما يقولون..

كنت أعزو ذلك في البداية إلى الغباء (غباء الخطباء أو غباء الناس عامة، لا فرق)، أو إلى قلة الموضوعات التي يجيدون التحدث عنها.. فيكون رمضان وأحكامه وسيلة لملء الفراغ، لا أكثر.

ثم لانت نظرتي بالتدريج، ربما كانوا يكررون هذه

المعلومات من أجل الناس الجدد الذين يصومون لأول مرة.

ثم أخذت أفكر أنهم ربما يفعلون ذلك من أجل التذكرة، والذكرى تنفع المؤمنين.

ثم فهمت! وصلت لمعنى الحكمة الخفية التي ربما كان هؤلاء الخطباء يجهلونها شخصياً عندما يتحدثون عن رمضان كما لو أنه أول رمضان يمر على المسلمين..

يحدث ذلك، ببساطة، لأنه كذلك فعلاً.. أو على الأقل هو كذلك بالنسبة إلى غالبية الصائمين؛ كانوا يصومون طوال سنوات وربما حريصين على ذلك، لكن رمضان لم يدخل قلوبهم، لم يدخل أعماقهم..

كان صيامهم مرتبطاً بالعادات والتقاليد والطقوس الجماعية وحتى الفلكلور، أكثر مما كان مرتبطاً بمعنى رمضان، وبحكمة رمضان..

دخل رمضان جيوبهم فأفرغها، ودخل أشداقهم الممتلئة بالحلوى والمكسرات الشهية، ودخل عيونهم فأمتعها بالمسلسلات والفوازير البهيجة..

ولكن العنكبوت والحمامة ظلَّا على القفل الذي على قلوبهم..

لم يدخل رمضان قلوبهم.

ولذلك وفي كل سنة، إذا ما دخل رمضان، حقاً سيكون أول رمضان.

* * *

كثـيرون - كمـا نعـرف جميعـاً ونلاحـظ – مـن أهـل الكبائـر والمعـاصي، حـتى أشـدها وأعظمهـا يصومـون في رمضـان، وربمـا أيضـاً يصلـون، ثـم إنهـم، كأمـر واقـع، يمتنعـون عـن معاصيهـم وكبائرهـم تلـك، طـوال هـذا الشـهر.

وهذا أمر شائع جداً. وأخشى أن يكون هو الغالب والأعم.

في الحقيقـة، لا تسـتطيع أن تبـذل أي جـدل في ذلـك. لا أحـد يمكنـه أن يمنـع أهـل الكبائـر مـن صيـام رمضـان أو مـن الصـلاة فيـه، ولا أحـد يمكنـه أن يغلـق أبوابـاً فتحهـا الرحمـن.

المهـم هـو مـا يـلي ذلـك، بعدمـا ينقـضي الشـهر، وربمـا في ليلة العيـد، هـل سـيعود هـؤلاء إلى حياتهـم الماضيـة ومعاصيهـم وكبائرهـم كمـا لـو أن شـيئاً لـم يكـن؟ هـل سـيصدق عليهـم إبليـس ظنـه؟ هـل سـيتمكن مـن هـدم كل مـا بنـوه في شـهر، في يـوم واحـد بعـد هـذا الشـهر؟ معصيـة واحـدة، كبـيرة واحـدة؟

إذا حـدث ذلـك، وأخـشى أن أقول:إنـه كثـيراً مـا يحـدث، فـلا فائـدة.

لا أخشى من أن أقرر: لا، لا لم يكن رمضان إذن.

رغـم أنهـم صامـوا، امتنعـوا عـن الأكل والـشرب، وصلّـوا، وربمـا ذهبـوا للتراويـح، لكـن..

لـو كان رمضـان حقـاً، لمـا عـادوا أدراجهـم. رغـم أن الصـداع أصابهـم بسـبب عـدم شرب الشـاي أو بسـبب عـدم تدخـين سـيجارة.

رغـم الولائـم والعزائـم، والأكل والتجشـؤ بعـده، والتخمـة

التي تبعث على الكسل، والمسلسلات التي تبعث على الملل، والأشداق والأفواه التي تتحرك بلا كلل..

رغم ذلك، ورغم التقويم الهجري المعلق هناك، ورغم أنهم تبادلوا التحيات والتهاني في بداية الشهر وفي نهايته..

لكن، مع الأسف، ليس رمضان.

ربما أي شيء آخر، وربما محسوب في كفة حسناتهم.

لكن، ليس رمضان.

* * *

لو كان رمضان، لكان حصل شيءآخر لهم.

لو كان رمضان قد دخل في قلوبهم، لما عادوا أدراجهم إلى أوضاعهم السابقة (كما كنت!).

لو كان رمضان، لقربهم خطوة أكثر إلى الله، لامتنعوا عن المعصية المعينة، أو حاولوا التخفيف من الكبيرة الأخرى، أو لحاولوا المواظبة على الصلاة.

لو كان رمضان حقاً، لتمسكوا بذلك الحبل الذي ألقي إليهم؛ فهو مصمم أساساً ليمسكوه طوال الوقت، لينقذهم في دنياهم وآخرتهم.

لكنهم - ولأن الغفلة وباء مستعصٍ- فإن الحبل يلقى إليهم، فيلعبون، ويلهون، ويقضون الوقت في شده وجره..

إلى أن تأتي الساعة، فيلتف حول أعناقهم، ويخنقهم،

يغرقهـم بـدلاً مـن أن ينقذهـم..

ولو كان رمضان حقاً، لكان هناك كلام آخر.

* * *

قلـت لي مـرة، وفي البـدء جـداً جداً:إنـك كنـت تصـوم وتصـلي في رمضـان، ولكـن بعدهـا لاشيء. وكمـا كنت.

سـألتك وقتهـا بسـذاجة – ولـم أقصـد جوابـاً معينـاً، فقـط للاسـتمرار في الحـوار- : لمـاذا؟..

أجبتـني ببسـاطة – جوابـاً لعلـك لـم تـدرك كـم هـو عميـق - قلـت لي، ولا أزال أذكـر النـبرة والملامح وكل شيء : **شـيطاني قوي.**

ولعلـك لـم تـدرك كـم هـو صحيـح مـا قلتـه. صحيـح وعتيـق. فمنـذ البدايـة كان ذلـك الرهـان، ومنـذ البدايـة كان ذلـك القسـم، ومنـذ البدايـة وحـتى الآن النـاس يسـقطون، وبعـد رمضـان بيـوم، يصـدق عليهـم إبليـس ظنـه.

«شيطاني قوي» قلت لي..

وسكت أنا.

عندمـا يتعلـق الأمـر بالقـوة والضعـف فالمسـألة نسـبية. إمـا أن الشـيطان قـوي، أو أن الآدمـي ضعيـف.

ولـو كان رمضـان حقـاً قـد مـرّ عليـك ودخـل هنـاك، لهمـس شـيطانٌ مـا لزميلـه: «إن آدمـي قوي..»فيـا صديقـي الـذي لـم يعـد ضعيفـاً، دع شـيطانك يقـول: إن آدمـي قـوي!.

* * *

وقلت لك أنا مرة، ولا تزال ذاكرتي تحتفظ بكل التفاصيل: فاتتا رمضان..

كنا هناك في الشارع العام، وطال حوارنا حتى انتصف الليل وفرغ الشارع وذهبت السيارات، أذكر التفاصيل – لكن لا داعي لها – كنت تعاتبني بمرارة عما اعتبرته قسوة مني (واعتبرته أنا حرصاً عليك) وذكرت لي، لتدلل على خطئي، وقوفك بصمود بوجه غواية معينة، غواية يصعب على من كان في وحدتك ووضعك وماضيك أن يرفضها، ويغلق الباب بوجهها.

لكنك فعلت.

وتخيلتك هناك وأنت صامد. تعود ليلاً إلى شقتك وحيداً. وتأكل وحيداً.

وتفكر بكل ما كان وحيداً. ثم تلف رأسك لتنام وحيداً.

ومع ذلك استطعت أن تفعلها: وصمدت!

أجهش قلبي بالبكاء وقتها. لم تسمع صوته. لكن دمعت عيناي. ثم قلت لك شيئاً كان يبدو أن لا علاقة له بالأمر..

قلت لك: فاتتا رمضان..

لقد فكرت وقتها، إن خطواتك (السريعة أصلاً) نحو الله، كانت ستكون أثبت وأقوى وأجمل وأروع، لو أن رمضان كان هناك..

فكرت أنك تملك في داخلك فطرة هائلة – رغم ركام الماضي ومعاصيه وتعقيدات الحاضر وتقاطعاته - تملك قابلية هائلة

للهداية، قابلية أصيلة ونقية لم تكن تحتاج إلى الكثير لتنجلي وتظهر على السطح.

في أعماقك كان هناك مارد مؤمن، لم يكن يحتاج إلى الكثير ليخرج من قمقمه.

ولو كان هناك رمضان، والقصة كلها بدأت بعده بشهر كما تذكر، لكان ذلك أثبت، وأيسر، وأروع، أو كذلك ظننت.

وقتها ما كنت أتصور أنك ستبقى إلى رمضان القادم.. لذلك قلت بحسرة وحزن عميقين، ما كان يبدو أنه لا علاقة له بما قلته. قلت لك: **فاتنا رمضان..**

هززت رأسك أنت موافقاً. ولم تعلق.

هناك في الشارع العام، وقد خلا من المارة والسيارات قلت حتى كادت أن تختفي بالتدريج، حصلت هذه الحكاية..

لكن، فوق هناك، عند الله في عليائه، كانت هناك خطة أخرى، وكان رمضان القادم ينتظرنا..

رمضان الذي – هذه المرة – يجب ألا يفوتنا.

* * *

وكذلك أشعر أن العدّ التنازلي قد بدأ فعلاً، وأن الوقت قد بدأ يدركني (يدركنا!) وأن علي أن أستجمع كل كلماتي وكل أفكاري وكل هواجسي ووساوسي ومخاوفي لأركزها في حقنة واحدة؛ يكون موعدها في رمضان..

نعم، أشعر أن العدّ التنازلي قد بدأ، وأن رمضان الذي

عـلى الأبـواب (يـكاد يطرقهـا) هـو الأخـير لنـا معـاً، وأن رمضـان الـذي يليـه، سـوف يزورنـا كل واحـد عـلى حـدة - في قـارة مختلفـة - (هـذا إذا فعـل أصـلاً)..

العـدّ التنـازلي قـد بـدأ، ورمضـان عـلى الأبـواب. وتـكات العـداد تـكاد تنفجـر كالقنبلـة الموقوتـة في أعصـابي..

* * *

إنه رمضان إذن.

ولأنـه كذلـك، فأبـواب الجنـة - الـتي تمتـد مـن الشـام إلى اليمـن - قـد فتحـت، وأبـواب جهنـم - الـتي لا أعـرف بالضبـط أبعادهـا - قـد أغلقـت.

والشياطين سلسلت وصفدت.

ولأنه كذلك فإنه فرصة عظيمة للتذوق.

* * *

لا، لا أسـخر مـن هـؤلاء ثانيـة. ولا أقصـد الاسـتفزاز والاسـتهزاء (رغـم أن الفرصـة عظيمـة!).

إنـه فرصـة عظيمـة للتـذوق فعـلاً، ولكـن ليـس للموائـد الممـدودة طـولاً وعرضـاً وعمقـاً. ليـس للحلويـات الرمضانيـة ولا للمقبـلات والمشـهيات الـتي يتقـن مجتمعنـا اجترارهـا، وتتفـنن نسـاؤنا في إعدادهـا.

ليـس لأنـواع الحسـاء الـتي (رمضـان ليس رمضانـاً مـن دونها) ولا للمخلـلات الـتي لا بـد مـن وجودهـا كطبـق ضروري ولا غـنى عنـه.

ليس لألوان اللحوم التي تنصب. بيضاء وحمراء وما بينهما. وطرق طهوها المختلفة وأنواع حشوها المتنوعة.

ليس لكل تلك السوائل المختلفة ألوانها، طازجة ومصطنعة، التي يفترض أن تمدنا بسعرات هي من لزوم ما لا يلزم.

ليس لكل ذلك الهدر الهائل – في الوقت والمال والصحة والروح – المشرعة راياته من أجل التقاليد الرمضانية العريقة.

نعم، رمضان فرصة عظيمة للتذوق. ولكن عن شيء آخر أتحدث.

* * *

يقولون: من ذاق عرف. ومن عرف اغترف!

* * *

رغم الأبواب المفتوحة، والأخرى المسدودة. رغم السلاسل والأغلال.

لا أجد فيه غير أنه فرصة للتذوق.

كل تلك الأبواب المشرعة الممتدة على خطوط الطول والعرض. كل تلك الأخرى المغلقة، والسلاسل وهي تصفد الشياطين.

لا أجد فيه سوى أنه فرصة للتذوق.

كل ذلك الأجر. كل تلك المغفرة. كل تلك الحسنات: لا أجد

فيها سوى أنها طعم أعد من أجلك، لكي تتذوق فقط! نعم. فقط. رغم أن هذا الـ(فقط) كثير - لو كنتم تعلمون.

* * *

أكرر: من ذاق عرف. ومن عرف اغترف!.

ولأنه يحبك. ويريدك أن تبادله حباً بحب..

ولأنه يعلم أنك تجهل كم هو رائع حبه، وهو العليم بما تعلم وما تجهل.

ولأنه يعرف أنك لا تعرف شيئاً، وأنك حائر وضال وخائف مثل طفل خجول في أول يوم له في المدرسة.

ولأنه خبير بأنك تسرف في مشاعرك في الاتجاه الخطأ، وأنك تقضي عمرك - أحياناً- في الأهداف الخطأ.

ولأنه يعرف أنك تحتاج إلى من تحبه، كما تحتاج الماء والهواء - وربما أكثر - وأن حاجتك إليه موجودة في أعماقك حتى لو كنت تجهل وجودها..

ولأنه يعرف أن حاجتك هذه، ستضيعك إن لم تشبعها؛ بالضبط كما تفعل كل الحاجات الأخرى، وستتمرد عليك إن لم تجبها، وستتركك في مهاوٍ ومهالك إن أنت لم تسكتها. فإنه يريدك أن تشبع هذه الحاجة إليه في أعماقك..

ويحدث ذلك كله - أول ما يحدث، وأكثر ما يحدث - في رمضان.

عندما يجعلك تتذوق قليلاً.

* * *

لنتأمل فيما تعودنا أن نسمعه، دون أن ننتبه له..

في رمضان هناك موسم تنزيلات هائلة وعظيمة على كافة البضائع وبكافة الأنواع.

هناك المغفرة. هناك الأجر الهائل. هناك العتق من النار. هناك الحسنات التي تجازى بعشرة أضعاف وأكثر مما لو قدمت في أي شهر آخر. هناك كل تلك الفضائل الأخرى التي تُدخل الجنة وتُخرج من النار، بأقل من القليل من الأعمال..

حسناً، نعرف ذلك كله. لكن ما الأمر بالضبط من وراءه؟.

لقد تعودنا سماعه ومعرفته. لكن لماذا يحدث ذلك بالضبط؟ لم نسأل.

لو حدث الأمر مع أي بضائع أخرى - دونما تشبيه - لشككنا ولثارت تساؤلاتنا. لو دخلنا أي متجر، ووجدنا أن أسعار بضائعه قد أنزلت إلى العشر أو أقل، ألن نتصور أن هناك شيئاً ما في الأمر. البضاعة كاسدة. مضروبة. مشاكل في الخزن. منافسة على الأسعار. إلخ؟.

أليس كذلك؟.

لكن معه. وعندما يفعل ما يفعله في رمضان. فإننا لا نتساءل. إنه غفور رحيم كريم. وتلك صفاته التي تطبعنا على أن نقبلها كما هي.

إننا لا نقلب في البضاعة، ولا نحاول أن ندقق لكي نعرف ما الأمر من وراء هذه التنزيلات.

لكن، فلنحاول أن ندقق قليلاً في الأمر.

إنه غفور ورحيم وكريم. ولأنه كذلك فإنه يمنحنا مغفرته وكرمه دونما حدود. في رمضان خصوصاً، أكثر من أي وقت آخر.

نعم. هذا مفهوم.

لكن، مثلاً، لو أننا خرجنا من رمضان ونحن عتقاء من النار وقد غفر الله لنا ما سبق من ذنوبنا، ثمعدنا كما كنا بالضبط، كبائر وكوارث ومعاصٍ ومصائب، وطريق النار مرة أخرى.. مالذي سيكون قد حدث بالضبط؟.

لا شيء. سننتظر إلى رمضان القادم، وهكذا دواليك.

أي شخص يموت في الفترة بين رمضانين في هذه الحالة، سيكون مصيره مظلماً جداً، وتعساً جداً.

لا ينسجم ذلك مع صفات المغفرة والكرم والرحمة، التي اتفقنا أنها السبب في موسم التنزيلات الرمضانية.

هناك خطأ ما في الموضوع..

لنحاول مرة أخرى.

* * *

عندما تزور متجراً ما، فيحاول صاحبه أن يغرقك بلطفه

ومودتـه، ويبالـغ في إكرامـك، فيحسـم لـك مـن السـعر، ويبالـغ في ذلـك، ويهديـك قطعـة مـن بضائعـه مجانـاً، ويجلـب لـك كرسـياً لتسـتريح عليـه، وينـادي عـلى صبيـه ليجلـب لـك كوبـاً مـن المـاء البـارد.

عندمـا يحـدث ذلـك، فـإن هـذا السـلوك سـيجذبك ويغريـك، حـتى لـو كانـت دوافعـه مكشـوفة: إنـه يريـدك أن تتبضـع منـه باسـتمرار، يريـدك ألا تذهـب إلى أحـد سـواه.

لا مشـكلة في ذلـك. مـا دامـت بضائعـه جيـدة، وأسـعاره متهـاودة، ومعاملتـه لطيفـة، لـن تذهـب إلى أحـد سـواه بـل سـتدل النـاس عليـه.

ذلك ما يحدث أيضاً. بدون تشبيه، طبعاً.

* * *

وعندمـا يعطيـك أحدهـم هديـة، وأنـت لا تـكاد تعرفـه، فـإن هدفـه واضـح طبعـاً؛ إنـه يريـدك أن تتعـرف عليـه، يريـدك أن تقـوي علاقتـك بـه، يريـد أن يلفـت انتباهـك إليـه؛ يريـد منـك أن تحبـه..

لا تصـدق أن هديتـه إليـك مجانيـة. لا، ليـس بالـضرورة أنـه يريـد أن تردهـا إليـه هديـة أخـرى، ماديـة، لكنـه يريـد أن يجذبـك إليـه، أن يحببـك فيـه، يريـد منـك أن تذهـب إليـه..

ذلك ما يحدث أيضاً. بدون تشبيه!.

* * *

الطعم في الصنارة. هذا هو!.

* * *

لأنه يريد منك أن تمشي إلى شبكته بخطى ثابتة، فإنه يضع لك الطعم في الصنارة.

في رمضان تحديداً..

ومن ذاق الطُّعم، عرف الطَّعم.

ومن ذاق عرف، ومن عرف .....

* * *

الطعم في الصنارة. شهر واحد في السنة، من أجل أن نعرف الطعم الذي من الممكن أن نتناوله طيلة السنة.

الطعم في الصنارة. شهر واحد في السنة وبتسهيلات غير مسبوقة؛ من أجل أن نعرف ما سيفوتنا ما لم نغترف طيلة أيام السنة.

إنه الاستدراج الجميل. إنه الفخ الرائع.

سيقول لك: اعبدني الآن في هذا الشهر وأبواب الجنة مفتوحة من أجلك، وأبواب النار أغلقت حتى لا تخيفك، والشياطين قد صفدت حتى لا تشوش عليك، وسأغفر لك كل ما عملت من ذنوب، وأعتقك من النار وأدخلك الجنة.

وستطمع. بديهي أن تطمع، شهر واحد في السنة مقابل السنة كلها؟.

بل وحتى العمر السابق كله؟ الصفقة مغرية، بل شديدة الإغراء. ستقدم عليها بالتأكيد، وربما ستقول لنفسك أو لشيطانك المقيد بالأغلال: **شهر واحد فقط ثم نعود كما كنا بالضبط. لن يتغير شيء بيننا، شهر واحد فقط أعبده ثم أعود لك..**

وفي هذا الشهر - وعلى الرغم من اتفاقك مع الشيطان – سيكون الطعم في الصنارة في انتظارك..

ويحدث كثيراًأن تذوق الطعم، فيروق لك، ويعجبك، وتريد المزيد، والمزيد..

وتعلق الصنارة.

* * *

وإذا لم تعلق الصنارة في رمضان، فمتى يا ترى؟.

* * *

نعم، رمضان فرصة عظيمة للتذوق. مناسبة لاستعراض لذائذ مختلفة وحلاوات متنوعة..

إنه يجر رجلك إليه. المغفرة فخ رائع. الأجر العظيم استدراج متقن. ستذهب إلى الفخ وأنت لا تدري بالضبط ما سيحدث بعدها، وفجأة سيعجبك الأمر وستتعلق به بالتدريج..

وعندما ينتهي موسم التسهيلات الرمضانية، ويهل هلال العيد، ستحاول أن تعود لاتفاقك مع الشيطان – الذي فك أسره مع هلال العيد – لكن ستجد خيوطاً وحبالاً تشدك

إلى الجهة المعاكسة، ستجد أن الأمر لم يعد أبداً كما كان قبلها..

ستحس كما لو أن رمضان قد غير أقفالك، وعندما رجع الشيطان بمفاتيحه القديمة لم يستطع الدخول إليك..

ستحس كما لو أن رمضان قد أسقطك في شبكة، اصطادك بها وأنقذك من ذلك المستنقع الآسن الذي كنت قد غرقت فيه..

الطعم في الصنارة. استدراج جميل وفخ رائع..

ولماذا بالضبط يفعل ذلك؟. ها نحن ندور دورة واسعة ونعود لنقطة البداية نفسها، لأنه يحبك. **لأنه يريدك أن تبادله الحب نفسه. لأنه يريد أن تذهب إليه، إنه يستطيع طبعاً- إن شاء -أن يسلكك على طريقه وأنت مكب على وجهك..**

لكنه يريدك أن تذهب إليه وأنت تمشي - سوياً- على صراطٍ مستقيم .

إنه يريدك أن تذهب أنت إليه بقدميك.

* * *

ليس هذا ما يحدث بالضبط. لكنه ما يجب أن يحدث.

إنه الهدف والحكمة من رمضان.

رمضان ليس من أجل رمضان. رمضان من أجل بقية السنة.

* * *

من ذاق عرف.....

* * *

ومـن الأشـياء الـتي يقدمهـا لنـا رمضـان لنتذوقهـا، فنعرفهـا، ونغـترف منهـا (سـواء في رمضـان أو فيمـا بعـده..): الصـلاة.

وهـو يقدمهـا لنتذوقهـا بطريقـة عرضيـة جـداً؛ بحيـث تبـدو أنهـا غـير مقصـودة البتـة. وهـذا مـن تمـام الاسـتدراج، ومـن روعـة الفـخ المنصـوب بإحـكام..

رمضـان كمـا هـو معـروف للعامـة وللنظـرة المتسرعـة، هـو شـهر الصيـام.. لكـن الـذي يحـدث، أن الاسـتدراج يكـون نحـو الفريضـة الأخـرى: الصـلاة..

ويحـدث ذلـك كمـا قلـت: بطريقـة عرضيـة تمامـاً. شـكلها الظاهـري أنهـا غـير مقصـودة.

النـاس، عامـة النـاس. مـن أصحـاب المعـاصي والكبائـر، أولئـك الذيـن لا يصلـون، سـيجذبهم رمضـان بفخـه مـن الجهـة الـتي تهمهـم: المغفـرة والعفـو.

إنهـم يريـدون أن يصفـر العـداد. عـداد الذنـوب والمعـاصي. ورمضـان فرصـة، فلينتهزوهـا.

لا مشكلة في ذلك. سيصومون..

ولكـن، ومـن أجـل أن تُسـتغل الفرصـة تمامـاً، دون أن يـترك مجـال لضياعهـا، فإنهـم بالإضافـة إلى صومهـم: سـيصلون.

صلاتهـم هنـا - هـي في الحقيقـة – مـن أجـل الصيـام، صلاتهـم

هنا هي بطريقة عرضية تماماً، غير مقصودة لذاتها: إنها من أجل رمضان. من أجل ألا يُحبط رمضان. من أجل ألا تضيع الفرصة.

سيصلون، إنه رمضان، ولا ينفع صيامه دون الصلاة فيه.

ورغم سذاجة النظرة وانتهازيتها الواضحة، إلا أنها صحيحة إلى حدٍّ بعيد: لا ينفع شيء- ليس الصيام فقط - من دون الصلاة.

في هذا العالم كله، كل الأعمال التي يستطيع ابن آدم أن ينجزها، ويتقنها ويحسن فيها. كل ما يمكن أن ينتج عنها من خير، من مساعدة للناس وتخفيف لآلامهم ومعاناتهم.

كل ذلك، مهما علا شانه ومكانته دنيوياً، سيكون - في النهاية- مثل **جثة منتفخة لحيوان نافق.. إذا لم يكن هناك صلاة..**

الصلاة هي ذلك الحد الفاصل الذي لا حياد عنه. الذي لا مفر منه إذا لم تكن تريد لأعمالك أنتُحبط لتصير مثل جثة حيوان نافق..

الصلاة هي ما لا غنى عنه، ما لا نقاش فيه، ما لا يمكن لمجادل أن يجادل فيه.

ولذلك، حتى أولئك الذين لا يصلون - كسلاً وهزلاً وضياعاً وتخبطاً- فإنهم عندما تحق الحقيقة ويضعون أنفسهم على المحك، ويصومون رمضان، طمعاً في موسم المغفرة، فإنهم يصلون، في إقرارٍ عملي منهم بأنه لا ينفع شيء من دون الصلاة.

إنه الاستدراج. إنه الفخ المنصوب بإحكام.

رمضان ليس من أجل الصيام. إنه - قبل ذلك - من أجل الصلاة.

* * *

يقودك إقرارك العملي (الذي لم تخبر نفسك به) الذي مفاده أن لا شيء ينفع من دون صلاة.. إلى أن تؤدي خمس صلوات كل يوم لمدة شهر كامل..

وذلك معناه، أنك ستؤدي أكثر من خمسمئة ركعة. من أجل صيام 30 يوماً..

خمسمئة ركعة!.

و يعني ذلك ألف سجدة!

لا أستطيع هنا إلا أن أقف. يجب أن أقف. لابد أن أقف..

عندما تسجد له ألف مرة، عندما تضع رأسك -أكرم وأهم ما عندك - في الأرض من أجله، عندما تنزل بطولك وعرضك وكل كرامتك وكل اعتزازك بنفسك.. وتذهب إليه هناك في المكان الأقرب..

ألف مرة ستنزل إليه. ستترك تكبرك وكبريائك وأوهامك ومشاعر النقص في داخلك، التي تجعلك مثل ديك منفوخ..

ألف مرة، ستتذلل إليه، وتطلب منه، وتنزل هناك لتدخل عليه..

ألف مرة، ستكرر اسمه، وتسبحه، وتمجده، وتنزهه، وتمتدحه بمختلف الأسماء والصفات التي يمتلكها.

حتى لو لم تكن تقصد شيئاً من ذلك كله، حتى لو لم تكن تفقه ما تقول، حتى لو كنت تصلي فقط من أجل الصوم، بعد ألف مرة، لا بد أن يترك ذلك أثراً في قلبك..

بعد ألف مرة، وحتى لو لم تكن تقصد شيئاً، لا بد أن تترسب في داخلك مشاعر وأحاسيس ما كانت في بالك في أول يوم من رمضان، يوم بدأت بالصلاة من أجل رمضان فقط..

لكن بعد ألف مرة، وكما لو كان الأمر أشبه بالتنويم **المغناطيسي:** لقد بدأت تحب ذلك..

حتى لو كان الأمر لا يزال ثقيلاً على نفسك: لقد بدأت تتعود ذلك.

أترى؟

إنه الاستدراج الجميل والفخ الرائع، إنه الطعم في الصنارة.

* * *

لا يحدث ذلك على الدوام. لكنه الشيء الذي يجب أن يحدث!.

* * *

الناس الذين يسكنون بالقرب من الأنهار، على شواطئها المباشرة تحديداً، تنشأ بينهم وبينها علاقة خاصة من نوع مميز جداً.

بالتدريج ومن دون أي إعلان صاخب عن ذلك، يصير النهر واحداً من أعز أصدقائهم. بل ربما أعزهم إطلاقاً، حتى دون أن يدركوا ذلك أو يعوه بشكل واضح.

الذين يعيشون على النهر يتفهمون ذلك. وزوارهم – الذين يقيمون بينهم بشكل دوري، كما قضيت شطراً من صغري – يعرفون ذلك ويميزونه.

فالنهر يكون دوماً هناك بالنسبة إلى هؤلاء. إنه يصبح عليهم وهم يصبحون عليه، يتناول معهم إفطارهم، ويشاركهم في خبزهم، ويتناول معهم الشاي وأحياناً القهوة، يسمع لهمومهم ومشاكلهم، ويساهم في التخفيف من حسراتهم، ويساعدهم – بصمته الدائم والمستمر – على أن يتكلموا، ويخففوا من الأثقال التي في صدورهم.. والتي لا يستطيعون أن يكشفوها.

إنه هناك: صديق الأرامل والعجائز والأطفال، وأحياناً العشاق. إنه يهيج فيهم ذكرياتهم – رغم أنه لا يتكلم قط – ثم يسكّنها بسكوته. ومن ثم يمضي، رغم أنه يظل موجوداً هناك..

لا، ليس كابن عمه الأكبر منه: البحر. البحر مختلف. هياج وغضب. ثورة وعظمة. مدّ وجزر. حياة وموت.

أما النهر فهو وديع وهادئ، يكاد أن يكون مسالماً جداً، لا يكاد يستطيع أن يؤذي أحداً. إنه صديق عزيز، يربت على كتفك ويواسيك، ويأتي لك بكوب من الماء عندما تشرق بالبكاء أمامه.

عظمة الله وقدرته وجبروته تتجلى ربما في البحر أكثر. لكن لطفه ورحمته وحكمته تتجلى في النهر بشكل واضح.

يذكرك النهر بأساسيات مهمة في الحياة. كل نقطة فيه لا تشبه نقطة أخرى، ومع ذلك فهي متماثلة معها تماماً، بشكل أو بآخر.

كل نقطة فيه تمضي إلى غير رجعة؛ مثل الزمن يتفلت من بين أصابعك، ولا يعود أبداً.. أبداً..

كل نقطة فيه تذكر أن الحياة تظل مستمرة. وسوف تظل مستمرة. رغم الأحزان. رغم الأوهام. رغم الخذلان.

يذكر النهر بالصبر؛إنه يظل صبوراً هادئاً. يمضي في طريقه، أحياناً كسيراً حزيناً، وأحياناً قوياً متيناً، لكنه يمضي على كل حال؛ مثل الحياة.

النهر لا يبهر كثيراً عند النظرة الأولى مثل البحر، لكنه يتسلل إلى داخلك بهدوء وبالتدريج. المشاهير في مختلف المجالات سيبهرونك بالتأكيد عندما تراهم للمرة الأولى اكثر بكثير مما انبهرت بصديقك المقرب يوم رأيته أول مرة، لكن صديقك هذا دخل قلبك أكثر، واقترب منك أكثر، وأحببته – كتحصيل حاصل –أكثر.

كذلك النهر. **العلاقة معه لا تكون حباً جارفاً من النظرة الأولى.** بل تكون علاقة ود عميقة تبنى عبر تراكم السنين. مثل علاقتك بجار العمر وأهله، إنك لن تنتبه لأهميتهم في حياتك، في تفاصيلها اليومية، لكنهم إذا انتقلوا فإنك ستكتئب، حتى بيتك شكله سيتغير.

وجـيران النهـر كذلـك. النهـر يدخـل في تفاصيـل حياتهـم وسـلوكياتهم سـواء وعَـوا ذلـك أم لـم يعـوه. إنهـم يدمنـون عليـه، دون أن يفهمـوا كنـه هـذا الإدمـان.

أعـرف شـخصياً أناسـاً مـن جـيران النهـر، سـيموتون حتمـاً إن أخـذوا النهـر منهـم، لقـد تحولـوا بالتدريـج إلى كائنـات برمائيـة – مخلوقـات نهريـة ؛ النهـر ليـس جـار عمرهـم فقـط، ولا أعـز أصدقائهـم، ولا بيئتهـم، ولا الخلفيـة الـتي تجـري فيهـا أحـداث حياتهـم فحسـب.. ولكنـه صـار جـزءاً مـن ذواتهـم، جـزءاً مـن كيانهـم..

* * *

سـتقول: جميـل ومؤثـر. لكـن مـا علاقـة ذلـك كلـه بموضوعنـا ؟

صحيح. كدت أن أنسى.

كتبـت عـن ذلـك كلـه لأنـه ذكـرني بـه حديـث للرسـول عليـه الصـلاة والسـلام، قـال فيـه - ذاك الـذي لا يكـذب أبـداً-: (مثـل الصلـوات الخمـس في اليـوم والليلـة مثـل **نهـرٍ جـارٍ عـذبٍ بـباب أحدكـم،** يغتسـل منـه خمـس مـرات، فهـل يبقـى مـن درنـه شيء؟).

والتشبيه صحيح إلى درجة الإعجاز.

فعلاقتنـا بالصلـوات الخمـس اليوميـة تشـبه علاقة النهـر بجيران عمـره. لا حـب جـارف صاعـق مـن النظـرة الأولى. ولكـن علاقـة ود ومـودة ورحمـة، يزيدهـا الزمـن متانـة وقـوة وحكمـة.

لـو قلـت لـك، أو لأي أحـد، أو لـو أن أي أحـداً قـال لأي أحـد:إن الخشـوع سـيكون هنـاك منـذ الركعـة الأولى الـتي تؤديهـا لـه سـبحانه وتعـالى، لـكان ذلـك كذبـاً مفضوحـاً لا يصدقـه أحـد.

لـو قلـت لـك، أو لأي أحـد، إن التعلـق بالصـلاة سـيأتي منـذ اليـوم الأول الـذي تصـلي فيـه، وإن التلـذذ بحـلاوة الصـلاة سـيكون منـذ اليـوم الأول والركعـة الأولى، فـإن ذلـك سـيكون مـن قبيـل المبالغـات الإنشـائية الـتي لـن تسـمن ولـن تغـني مـن جـوع..

ربمـا في الحـج هنـاك شيء كهـذا – عـلى مـا يقولـون ويـارب أوعدنامعاًبإذنـه تعـالى - في الحـج هنـاك ذلـك الخشـوع الجـارف الـذي يتـأتى فجـأة مـن النظـرة الأولى، تنهمـر الدمـوع وتتدفـق المشـاعر، ويـسري التيـار الكهربـائي الصاعـق في الأعصـاب، منـذ النظـرة الأولى..

لكـن في الصـلاة، لا، هنـاك في البدايـة التعـود والاضطـرار، ثـم الاصطبـار عليهـا، ثـم السـكون والهـدوء، ثـم الطمأنينـة والراحـة، ثـم ذلـك الحـب العميـق والمـودة الصادقـة للنهـر الـذي يمـر أمـام بيتـك، وتغتسـل فيـه خمـس مـرات كل يـوم، **لـو أخـذوا منـك النهـر، مـن سـيأتيك بمـاء معـين؟..**

طبعـا قـد يفيـض النهـر أحيانـاً، ويجتاحـك الخشـوع في الصلاة، وتنهمـر دموعـك وتسـيل أعصابـك وتحلـق عاليـاً في السـماوات السـبع بينمـا أنـت سـاجد وجبهتـك عـلى جبهـة الأرض.

لكـن ذلـك كلـه لـن يـأتي فجـأة. بـل بالتدريـج. بهـدوء. رويـداً رويـداً..

ورمضان بركعاته الخمسمئة الحتمية، يعطيك الطعم لكي تحب ذلك النهر الذي يأتيك إلى بابك، يعطيك الوقت لينمو في داخلك ذلك الودّ المتراكم، وتنمو في أحشائك مشاعر الحب تجاه جارك هذا الذي تغتسل فيه خمس مرات كل يوم..

رمضان يمنحك الفرصة للتعود. والتعود ضروري جداً في تطور أي علاقة ليس فيها حب النظرة الاولى..

رمضان يمنح لك ولغيرك، فرصة الاصطبار، ومحاربة الكسل، وقتل العجز.

رمضان يعطيك قطعة أرض غالية الثمن، مطلة على شاطئ النهر مباشرة.. يسجلها باسمك.. ويعلمك السباحة!.

* * *

نهر جارٍ عذب بباب دارك.

وأقول لك: خذ نفساً عميقاً جداً، واغطس!.

* * *

وستسألني: لماذا إذن ينقطع الكثيرون عن الصلاة بعد رمضان؟.

إنه سؤال حزين.

وجوابه معقد. فما الذي يدفع الناس إلى أن يتركوا النهر بعد ما تعودوا عليه واغتسلوا منه وسبحوا فيه؟.

ما الذي يدفعهم إلى أن يتركوا أرضاً هم جيران النهر فيها،

ليعـودوا للسـكن في أرض خربـة، صحـراء جافـة، لا مـاء فيهـا ولا زرع؟..

نعم. إنه سؤال حزين. وجوابه معقد..

فلربمـا لأنهـم لا يعرفـون، لـم يخبرهـم أحـد بذلـك، وبـين كـوم الأشـياء النمطيـة الـتي تقـال في بدايـة الشـهر وخلالـه عـن المغفـرة والأجـر العظيـم لـم يخبرهـم أحـد عـن الفحـوى مـن ذلـك كلـه. لـم يتكلـم لهـم أحـد عـن الطعـم في الصنـارة، أو لعـل أحـداً أخبرهـم؛ ولكنهـم قـوم لا يسـمعون؟..

أو ربمـا كمـا قلـت أنـت مـرة، عندمـا سـألتك أنـا مـرة السـؤال الحزيـن نفسـه. شـيطانهم قـوي..

وكمـا قلـت سـابقاً: عندمـا يتعلـق الأمـر بالقـوة والضعـف، فالمسـالة تظـل نسـبية.

فإما أن شياطينهم قوية.

أو أنهم هم الضعفاء.

* * *

والضعـف والقـوة مسـألة حساسـة وأساسـية في علاقتنـا بأنفسـنا وبـالله عـز وجـل، وبالشـيطان الـذي يتربـص ضعفنـا ويترصـد تعبنـا - ليهجـم..

والطعـم الـذي يسـتدرجنا إليـه رمضـان مجـدداً- بينمـا الشـيطان مصفـد في أغلالـه مقيـد هنـاك في الزاويـة المظلمـة - هـو أنـه يجعلنـا نعلـم كـم نحـن أقويـاء.

أو بعبارة أخرى، يجعلنا نعلم كم من الممكن أن نكون أقوياء.

يجعلنا نستشعر نواحي القوة في دواخلنا، نستكشفها ونقيمها.. ونستثمرها..

لا أقول لك أن ذلك يحدث دائماً.

لكني أزعم أنه ممكن أن يحدث دائماً.

* * *

تذكر مرة حكيت لي عن صديقك ذاك (الذي اسمه يشبه اسم نهر صغير في منطقة ريفية بعيدة..) وعن قصة التزامه الطريفة.

سأتجاوز تفاصيلها الممتعة - والتي تؤكد فقط ما قلته لك سابقاً من أن الإيمان يتحرك بطرق غامضة -لأصل إلى نهايتها وملاحظته الجميلة التي لها صلة بموضوعنا.

قال لك: إنه مرة بعدما صلى صلاة العصر في المسجد، قضى الوقت كله فيه إلى صلاة المغرب، ثم صلاها جماعة، وخرج..

وعندما خرج يسير في الشارع وحيداً انتابه ذلك الشعور العظيم بالقوة والمنعة، بالضبط قال لك:إنه أحس أنه قد صار **أقوى شخص في العالم!.**

ضحكنا معاً، أنا وأنت، وكررنا معاً العبارة: أقوى شخص في العالم!.

لعله لا يدري، كم هو صحيح ورائع تعليقه هذا..

* * *

أقوى شخص في العالم!.

ورغـم أن مصداقيـة هـذه العبـارة تحتـاج إلى مباريـات عالميـة، ومقاييـس انتخابيـة، وسـيطرة نوعيـة، وتفاصيـل فيزيائيـة وفسـيولوجية كثـيرة؛ إلا أن العبـارة صحيحـة بشـكل مدهـش، لا، ربمـا ليسـت الدهشـة هـي في التعبـير الـذي يجـب أن أسـتعمله هنـا، بـل شيء آخـر يتملكـني كلما خرجـت عبـارة ربما كانـت عادية وعاميـة لكنهـا تخـترق بصدقهـا وبسـاطتها جوهـر الحقيقـة، أكـثر بكثـير مـن تلـك العبـارات النمطيـة الـتي يتمنطـق بهـا أولئـك المثقفـون..

أقـول ذلـك، لأني بعدمـا فكـرت بعبـارة صديقـك، وجدتهـا شـيئاً اسـتثنائياً اخـترق جوهـر الحقيقـة بشـكل اسـتثنائي ونـادر..

سـمعت، وسـمعنا جميعـاً، ذلـك الحديـث الشـهير عـن صـلاة الجماعـة الـتي تفضـل صـلاة الفـرد بسـبعٍ وعشريـن مـرة..

وكعادتنـا، جلسـنا مثـل المـرابي اليهـودي العتيـق- الـذي كثـيراً مـا نكونُـهُ في حـالات كهـذه - جلسـنا نعـد ونحـصي ونحسـب، كمـا لـو كنـا موظفـين نشـطين في بورصـة الأجـر والثـواب؛ نعـد ونجمـع ونطـرح ونفاصـل، كمـا لـو كنـا قـد أدينـا فضـلاً عـلى رب العـزة إذ نحـن ذهبنـا إلى المسـجد..

وفي غمـرة حسـاباتنا نسـينا شـيئاً مهمـاً، لكـن صديقـك تذكـره، أو فهمـه، أو شـعر بـه، عندمـا خـرج مـن الجامـع يسـير في الشـارع

وحيداً.. وأحس أنه أقوى شخص في العالم..

كيف لم ينتبه أحد إلى ذلك؟ كيف لم يخبرنا أحد بذلك؟ كيف لم يفسر أحد لنا تفاصيل الأجر المضاعف؟ لكن صديقك أحس. ربما دون أن يفهم بوضوح. ثم إنه قال، وهو المهم.

صلاة الجماعة، كتحصيل حاصل، تجعل الواحد منا بعشرين. أو بخمس وعشرين أو بسبع وعشرين.. (وعملياً، إذا كان الفرد الواحد الذي يصلي جماعة يساوي سبعةً وعشرين شخصاً من أولئك الذين يمشون في الأسواق، فإنه – عملياً - يكون فعلاً أقوى شخص في العالم، وليس أقوى منه وأصلب إلا شخص مثله؛ يصلي جماعة).

صلاة الجماعة تضاعف من قوتك. تجعلك **تستمد طاقتك الروحية من الجمع** الذي يصلي معك. وكل فرد يصلي في الصف هو مثلك. بدون الصف لا يساوي شيئاً ولا يحسب ربما إلا كصفر على الشمال، لكن انتظامه في الصف، انتماءه للجماعة، هو الذي يجعله يميناً. أقصى اليمين. هو الذي يجعل له وزناً..

صلاة الجماعة تعطي ذلك الشعور الطاغي، أنك فقدت فرديتك المزمنة وعزلتك السرية، وتمنحك ذلك الانتماء للآخرين الذين ينتمون بدورهم إلى الجماعة، وهو شعور (رغم الغموض الذي قد يكتنفه) إلاأنه يمنح في الوقت نفسه الطمأنينة والسكون.

إنها طمأنينة مستندة على جدار الصف المتين المتماسك

الـذي تكونـه صـلاة الجماعـة. طمأنينـة مسـتندة عـلى **حقيقـة أنك أخـيراً - في هـذا العالـم الموحـش النـائي - لـم تعـد وحـدك، وأنـك أخـيراً - في هـذا العالـم القاحـل المـليء بالوحـدة والعزلـة والخـذلان والغـدر – صـار لـك جماعـة..**

طمأنينـة لا يعرفهـا إلا ذاك الـذي ظـل لدهـور وحيـداً تائهـاً **دونمـا صديـق في الربـع الخـالي.** وفجـأة صـار لـه ربـعَ طمأنينـة هادئـة. تـسري بصمـت مـن كتـف لكتـف. مـن قـدم لأخـرى. عـبر ذلـك الصـف المـتراص الواقـف للصلاة.نعـم، إنهـا القـوة الهادئـة المطمئنـة، تنتقـل مـن واحـد لآخـر لتسـكن في المجمـوع، في فـرد هـو جزيئـة مـن تركيـب كامـل لا يتحقـق إلا عـبر اتحـاد الجزيئـات، وكل جزيئـة لا تحقـق ذاتهـا إلا عـبر التصاقهـا المتفاعـل مـع الجزيئـات الأخـرى..

الإسـلام كمـا يقـال، أو بالأحـرى كمـا لا يقـال!، هـو مجموعـة مـن التوازنـات بـين الـروح والمـادة. الرحمـة والقـوة. وبـين الفـرد والجماعـة.

وبالنسـبة إلى التـوازن الأخـير عـلى الأخـص، بـين الفـرد والجماعـة، فـإن صـلاة الجماعـة خصوصـاً هـي الـتي تـأتي بـه، في شـكل واضـح وجـلي..

صـلاة الجماعـة تنجـز ذلـك بشـكل حاسـم وتلقـائي ومـن دون تصعيـدات لفظيـة وخطابيـة.

صـلاة الجماعـة تحقـق ذلـك **الذوبـان الـذي يحصـل للفـرد في الجماعـة،** بالتدريـج تتسـايل جزيئاتـك، تتدافـع ذراتـك، تتوتـر كل جزيئـة فيـك لتخـرج مـن قمقمهـا، مـن أفقهـا الضيـق، مـن زنزانـة

الـذات، وتتدافـع نحـو السـماء الأرحـب، نحـو الأفـق الطلـق، نحـو الجماعـة، حيـث يتمايـز وجودهـا وتظهـر فاعليتهـا أكثرعندمـا تلتقـي مـع بقيـة الـذرات، والجزيئـات، تتفاعـل جميعـاً في إطـار واحـد. وتنصهـر في بوتقـة واحـدة..

صـلاة الجماعـة تفعـل ذلـك. وفي الحقيقـة، هـي صممـت أصـلاً لتحقـق ذلـك.

وحـتى لـو صليـت الصـلاة منفـرداً، في ركـن بعيـد خـالٍ أو غرفـة منعزلـة أو صحـراء خاليـة، فإنـك مضطـر بمـا لا مجـال فيـه للتغيـير أن تتحـدث في فاتحـة صلاتـك - الـتي لا صـلاة مـن دونهـا - بصيغـة الجماعـة. تكـون وحـدك، بينـك وبـين الجماعـة ربمـا قـارة، ومـع ذلـك تهمـس: {إِيَّـاكَ نَعْبُـدُ وإِيَّـاكَ نَسْـتَعِينُ }.. تذكـرك الكلمـات، عندمـا تنطقهـا بأنـك جـزء مـن الجماعـة، مهمـا بعـدت، مهمـا ابتعـدت..

أو كمـا لـو كانـت الكلمـات تذكـرك بأنـك خـروف شـارد مـن القطيـع.. خـروف مسـلوب، منهـوب مـن القطيـع.. وإذا ظللـت كذلـك فإنـك مرصـود لذلـك الذئـب الـذي يتربـص مـن الغنـم القاصيـة.

صـلاة الجماعـة تحقـق الانتماء، وتعطيـك تلك الهويـة: **لم تعد وحـدك.** صـار لـك جماعة، لـن تنصهـر ملامحـك تماماً ولـن تضيع اسـتقلاليتك، لكن حدودك لن تتمايز إلا عبر تفاعلها مع الجماعة..

وسـتذوب الـ(أنـا) في الـ(نحـن)، سـتأخذ الـ(أنـا) مـن الـ(نحـن) قوتهـا وتماسـكها وبنيانهـا المرصـوص، فتصـير سـداً منيعـاً لا يأتيـه الباطـل مـن بـين يديـه ولا مـن خلفـه..

وستأخذ الـ(نحن) من الـ(أنا) تنوعاتها وتمايزاتها وإبداعاتها وخصوصياتها فتصب فيه كما يصب النهر في المحيط. تخصب الـ(أنا) الـ(نحن) كما تخصب الدلتا من طمي الأنهار..

وبين هذا الذوبان الأخاذ وذاك التفاعل الجامع سيسري – مثل تيار كهربائي – ذلك الشعور المطمئن بالقوة والمنعة..

وسيخرج واحد – تعرفه – من الجامع بعدما صلى فيه صلاتَي جماعة وقضى الوقت بينهما فيه، سيخرج بجيوبه منتفخة بالأجر؛ كل صلاة فيه بسبع وعشرين مرة، وسيمشي في الشارع يكاد يهز الأرض تحته من القوة، وسيشعر بذلك الشعور الفطري الذي لم تعقده التنظيرات والخطابات والفلسفات، والذي سيعبر عنه بذاك التعبير البسيط الخارق: **أحسست أني أقوى شخص في العالم..**

* * *

الواحد في الجماعة، بسبعة وعشرين واحداً منفرداً.

أي أن كل واحد منهم هو أقوى شخص في العالم. أو على الأقل هذا ما يمكن أن يحس به.

لا أزعم أنهم ملائكة. لكني أعرف أن الملائكة معهم.

ولا أزعم أن هذا يحدث دائماً.

لكنه يحدث. ومن الممكن (لو سمحنا له) أن يحدث على الدوام.

* * *

بالمناسبة، صديقك هذا، رأيته للمرة الأولى قبل أيام. مع جسم كهذا، وعضلات كهذه، بديهي جداً أن **يشعر أنه أقوى شخص في العالم!.**

* * *

ورمضان، بتسهيلاته تلك، يجر الناس جراً إلى الجوامع، في التراويح أو غيرها، يذهبون طمعاً في الأجر والمغفرة والعتق من النار. أو يذهبون، هكذا، بلا سبب، لأنه رمضان، وقد تعود الناس الذهاب فيه إلى الجامع، كما تعودوا على تلك اللعبة الرمضانية الشعبية التي أكرهها كثيراً..

لا يهم، سيذهبون دونما سبب. سيذهبون فقط، لكنه الطعم في الصنارة، كما تعلم، وشيئاً فشيئاً، ودون أن يدرك واحد منهم ما يُدبر له، سيجذبه الأمر، سيسري فيه، بالحث، ذلك التيار الكهربائي الذي ينتقل من كتف لكتف، ومن قدم لأخرى، سيحس كل منهم بقوة مختلفة تجتاحه من الداخل، لم يعد شيطانه قوياً كما كان قبلها، وسيفكر مع نفسه أنه رمضان، وقد قيدت فيه الشياطين وصفدت، وأصبحت ضعيفة..

وكما قلت: عندما يتعلق الأمر بالقوة والضعف، فالأمر نسبي، فإما أن الشيطان صار ضعيفاً، أو أنك أنت الذي أصبحت قوياً، واكتشفت نواحي القوة الكامنة في أعماقك.

أو، وهو الأغلب، الاثنان معاً، ضعف الشيطان – العابر – جعلك تتمكن من اكتشاف قوتك..

* * *

وعندما ينتهي رمضان. وتنقطع عن الذهاب إلى المسجد، ستفتقد ذلك دون أن تدري. وستستيقظ من نومك ذات يوم هلعاً وأنت تكاد تختنق وتموت، ستشعر أن فؤادك أصبح فارغاً، بل أن قفصك الصدري كله قد فرغ فجأة.

وستكتشف فزِعَاً، أن قلبك لم يعد مكانه.

لقد فقدت قلبك فجأة. وها هي شراييناك تنبض في الفراغ.

وستذهب لتبحث عن قلبك، في الأماكن التي تعودت أن ترتادها. في بيوت الأقارب والأصدقاء حيث ذهبت في العيد، في ذلك المطعم الذي سهرت فيه. هنا أو هناك.

في البيت بين أكوام الملابس التي تنتظر الغسيل، قرب الهاتف وأنت تنتظر مكالمتهم التي تجيء ولا تجيء ؛ ستبحث، دون جدوى..

تذكر أن تذهب إلى الجامع حيث كنت تذهب قبل العيد. لكن لا تسأل الخادم عن قلبك الذي ضاع، سيظنك مجنوناً على الأكثر، ادخل الحرم، وانظر إلى السقف.

ستجده معلقاً هناك، ساطعاً منيراً، موصولاً بذلك التيار الكهربائي الذي يسري بين الأكتاف والمناكب والأقدام..

لكنه يكاد يموت وينطفئ. لأنك قطعت التيار، عندما انقطعت عن الذهاب..

هذا على الأغلب، ما عناه ذاك الذي لا يكذب أبداً، صلوات الله وسلامه عليه، حينما قال عن رجل يستظل بظل الرحمن، يوم لا ظل إلا ظله..

قال:إن **قلبه كان معلقاً بالمساجد.**

نعـم: معلـق مثـل الثريـا السـاطعة الموصولـة بتيـار الأكتـاف والأقـدام والقلـوب..

* * *

السـؤال الحزيـن نفسـه مـرة أخـرى، لمـاذا إذن لا يرجعـون؟. ولمـاذا إذن ينقطعـون ويتركـون قلوبهـم - المعلقـة هنـاك في السـقف - تـذوي وتنطفـئ وتـذوب؟؟.

والجـواب المعقـد نفسـه - الـذي لا يخفـف الحـزن - ربمـا حاولـوا الرجـوع إليـه، ولكـن الشـيطان كان هنـاك كعادتـه، { وَزَيَّـنَ لَهُـمُ الشَّـيْطَانُ أَعْمَالَهُـمْ فَصَدَّهُـمْ عَـنِ السَّـبِيلِ } [العنكبـوت 29/ 38].

صدهم عن السبيل. وصدَّق عليهم إبليس ظنه.

* * *

ويقولون من ذاق عرف، ومن عرف اغترف..

فلمـاذا إذن، بعدمـا ذاقـوا وعرفـوا، لـم يغترفـوا، بـل لـم يقتربـوا أصـلاً مـن جديـد؟..

كيف يحدث ذلك؟... كيف يمكن أن يحدث ذلك؟...

إنهـا المأسـاة الإنسـانية نفسـها تتكـرر باسـتمرار. مأسـاة الغبـاء الإنسـاني في اسـتبدال الـذي هـو أدنى بالـذي هـو خـير.. { قَـالَ أَتَسْـتَبْدِلُونَ الَّـذِي هُـوَ أَدْنَى بِالَّـذِي هُـوَ خَـيْرٌ اهْبِطُـواْ مِـصْراً فَـإِنَّ لَكُـم مَّـا سَـأَلْتُمْ وَضُرِبَـتْ عَلَيْهِـمُ الذِّلَّـةُ وَالْمَسْـكَنَةُ وَبَـآؤُوْاْ بِغَضَـبٍ

مِّـنَ اللَّـهِ }[البقـرة 61/2].

رغم أنهم ذاقوا، وعرفوا.. حدث ذلك..

* * *

أتسـاءل. إذا لـم يكـن رمضـان هـو الـذي سـيجعلك تتـذوق، لتعـرف.. ومـن ثـم تغـترف، فمـاذا إذن؟

وإذا لـم يكـن رمضـان هـو الـذي يجعـل الصنـارة تعلـق، فمـاذا إذن يـا تـرى؟.

وهل ستعلق أصلاً بشيء؟

وإذا لـم يكـن رمضـان هـو الـذي سـيجعلك جـاراً للنهـر الجـاري العـذب، بـباب دارك، ويجعلـك تغتسـل فيـه، فـلا أعتقـد أن هنـاك شـيئاً آخـر سـيخلصك مـن المسـتنقع الآسـن الـذي هـو بديـل..

وإذا لـم يكـن رمضـان هـو الـذي يجعلـك تشـعر بأنـك أقـوى شـخص في العالـم، فأخـشى أنـك سـتكون أضعفهـم وأكثرهـم تـرددا وهزيمـة..

وإذا لـم يكـن رمضـان هـو الـذي سـيجعل قلبـك معلقـاً- كالثريـا السـاطعة - في سـقف المسـجد، موصـولاً بذلـك التيـار الـسري السـاري الـذي سـيغير ذات يـوم العالـم بـأسره، فمـاذا إذن سـيحل بقلبـك؟..

واجـه نفسـك، فلنواجـه أنفسـنا جميعـاً: إذا لـم يكـن رمضـان هـو الـذي سـيخرجنا مـن مشـاكلنا، فهـل إلى خـروج مـن سـبيل؟.

واجـه نفسـك بهـذه الحقيقـة. أو فلنواجـه أنفسـنا جميعـاً: لا مجـال للتأجيـل. إنـه (بروفـة) المشـهد النهـائي. إذا لـم يكـن رمضـان هـو الذي سيحسـم أمـرك، ويقتـل هـذا الـتردد والتذبذب والكسـل، وينقـذ عمـرك.. فـلا أظـن أن الأمـر سـيختلف فيمـا بعـد؛ سـنظل كمـا نحـن. كل رمضـان نتقـدم خطـوة. وبعدهـا؛ كمـا كنـت. ويعـني ذلـك عملياً عـشر خطـوات إلى الـوراء..

فلنعـترف: إذا تذوقنـا وعرفنـا، ولـم نغـترف، بـل عفنـا وأصررنـا عـلى اسـتبدال الـذي هـو أدنى بالـذي هـو خـير؛ إذا تركنـا المـنّ والسـلوى، فسـندفع ثمـن ذلـك غالياً: بصـلاً وثومـاً، ذلـة ومسـكنة وغضبـاً مـن الله.

فلنعترف: إذا لم يكن رمضان سينقذنا فماذا إذن يا ترى؟.

* * *

لكن الطعم في الصنارة **لم تنته محتوياته بعد..**

لا يـزال فيـه شيء مغـرٍ جـداً، وجـذاب جـداً. (لـو كان النـاس يفقهـون).

لا يـزال في الطعـم بقيـة كافيـة لأن تجعـل النـاس يسـقطون في فـخ يغـير حياتهـم، وينقذهـم ممـا هـم فيـه..

لا يـزال الطعـم، بعـد الصلـوات الخمـس، بعد صـلاة الجماعة. فيـه شيءأكـثر، ممكـن أن يجعـل النـاس يتذوقونـه – فقـط لأنـه رمضـان – لكنهـم بعدهـا لا يتركونـه أبـداً..

ربمـا سـيتذوقونه في رمضـان، ثـم يصـير فيمـا بعـد وجبتهـم الأساسـية الـتي لا غـنى لهـم عنهـا..

* * *

رمضان يستطيع أن يجعلك تشعر بأنك من النخبة..

رمضان يستطيع أن يجعلك تحس بأنك من الصفوة العليا، من تلك الطبقة الأعلى في المجتمع..

مجتمع النخبة..

رمضان سيجعلك تنتمي لهؤلاء الأفراد المحظوظين..

للصفوة..

* * *

لا.

ليسوا المشاهير على صفحات المجتمع في المجلات.

ليسوا أفراد الجت ست؛ أولئك الذين يشتون في ماربيا ويصيفون في الكوت دازور ويتسوقون من باريس ويكدسون الأموال في جنيف.

لا!.

ليسوا أولئك الذين يختارون ألوان سياراتهم لتنسجم مع ملابسهم، وينفقون على دعوة غداء ما يكفي لإطعام قبيلة من الجياع لمدة سنة، ويغيرون عشيقاتهم وعشاقهم بأسرع مما يغيرون أحذيتهم.

لا!.

ليست الشقة في الطابق التسعين في مانهاتن، ولا اليخت المركون في كان. ولا الملابس من ديور وشانيل وكاردان..

ليسوا أولئك المساكين، الوحيدين رغم الزحام حولهم، التعساء رغم الضحكات الزائفة حولهم، المنفيين في أصقاع شهرتهم، المسوّرين خلف قضبان ثرائهم المكهربة، المعزولين إلا من حراسهم الشخصيين..

ليسوا أولئك الذين {يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ } [الروم7/30].

ليسوا أولئك هم النخبة. ليسوا الصفوة. ليسوا الطبقة العليا..

رغم بريق (الفلاشات) حولهم، رغم الأنوار الساطعة المسلطة عليهم..

ليسوا هم!.

* * *

عن آخرين، لديهم نور ساطع يمشي معهم.. عن نور تام سيكون معهم يوم الظلمة التامة.

عن بريق آخر، غير بريق (الفلاشات) المتلاحقة المتوترة؛ بريق آخر يبزغ في العيون، بريق يتراوح بين الانتعاش والطمأنينة، ويجمع بين اللذة والراحة..

لا!. ليسوا على صفحات المجلات ولا على أغلفتها..

لن تتابع أخبارهم وصورهم وسائل الإعلام..

لكنهم النخبة – الصفوة..

إنهم أولئك الذين يحب الله أن يوقظهم كل فجر، ليذهبوا إليه..

* * *

تخيل فقط!.

من بين مليارات البشر، هناك فئة معينة - محدودة جداً للأسف في الوقت الحاضر -يحب الله إيقاظها فجر كل يوم، لتذهب إليه وتصلي له. في موعد سري يكاد يكون مثل مواعيد العشاق الليلية..

كما يذهب العشاق سراً إلى مواعيدهم، يتسلل هؤلاء أيضاً بهدوء، يمشون في ظلمات ستشهد لهم فيما بعد، ونورهم يسعى بين أيديهم، ويذهبون إليه في رحلة قد تكون بعيدة.

من بين الملايين من الذين قد يكونون في تلك اللحظة ثملين، مخمورين..

ومن بين الملايين من الذين قد يكونون في تلك اللحظة غارقين في شهوة ما..

ومن بين الملايين الذين قد يكونون غاطين في سبات عميق، في غفلة عميقة؛ هي جوهر حياتهم كلها..

من بين كل هؤلاء، يختار الله فئة معينة محدودة – لا أستطيع أنأجزم بنسبتها، فلنكن متفائلين عندما نقول: 1% يوقظهم من نومهم..

وإليه يذهبون..

طبقة الـ 1% تلك، هي النخبة حقاً.

ورمضان يستطيع أن يجرك إليها..

* * *

وهـؤلاء أيضـاً يكونـون مشـهورين جـداً شـهرة عظيمـة وفائقـة، أكـثر بكثـير مـن أولئـك الآخريـن الذيـن يعلمـون ظاهـراً مـن الحيـاة الدنيـا.

إنهم مشهورون جداً. ولكن بشكل مختلف.

إنهم مشهورون بين الملائكة. بين الأنبياء. وبين الصِّديقين.

إنهـم معروفـون جـداً في السـماوات السـبع. ليـس هنـاك مـن لا يعرفهـم فيهـا. حـتى جبريـل؛ أمـين الوحـي والرسـالة يعرفهـم..

أخبارهـم هنـاك منتـشرة، والـكل يتابعهـا ويتتبعهـا. وإذا مـا تغيـب أحدهـم عـن الذهـاب إلى صـلاة الفجـر، فالـكل يسـأل عنـه باهتمـام، وإذا مـا تكـرر الغيـاب فسـيعم القلـق الحقيقـي والصـادق.

وإذا حصـل وانقطـع أحدهـم تمامـاً فـإن الملائكـة هنـاك سـتحزن، وربمـا سـيعلن الحـداد في السـماوات السـبع، وسـيعامل الموضـوع كمـا لـو كان قصـة حـب حزينـة انتهـت بالفـراق، فكيـف يسـتطيع حقـاً أن ينقطـع عنهـا مـن جربهـا، وكيـف يسـتطيع أن يمتنـع عـن الذهـاب مـن يوقظـه الله..؟

وكيـف يـترك النخبـة – طبقـة الصفـوة المنتقـاة – مـن انتمـى إليهـا، وعـرف ملذاتهـا، وذاق بريقهـا وتنعـم بنعيمهـا..؟

وهـم فـوق تلك الشـهرة، أثريـاء جداً؛ كمـا يليق بطبقـة الـ 1%.

ربمـا ملابسـهم ليسـت مـن (ديـور)، وربمـا يذهبـون مشـياً عـلى الأقـدام إلى المسـاجد، وربمـا لا يـكادون يدبـرون أمـور معيشـتهم، لكنهـم أثريـاء جـداً، وثراؤهـم لا تكفيـه المصـارف السـويسرية ولا حسـاباتها السريـة، ولا خزائنهـا الواسـعة، ولا أقبيتهـا المدرعـة المخصصـة للمجوهـرات النـادرة..

ربمـا لا يبـدو ذلـك عليهـم - وبعـض أثـرى الأثريـاء لا يبـدو عليهـم - لكـن عندمـا تحـق الحقيقـة فـإن الذيـن يعلمـون ظاهـراً مـن الحيـاة الدنيـا سـيكونون مفلسـين يـوم القيامـة، وسـتراهم وهـم يتسـولون حسـنة مـن هنـا وحسـنة مـن هنـاك..

أمـا نخبتنـا الأخـرى، فسـتراهم وهـم يرفلـون بالعز والرفـاه، وفي تلـك الظلمـة الـتي سـيتخبط بهـا البـشر في ذلـك اليـوم الرهيـب، سـيتلقى أولئـك الذيـن مشـوا إليـه في الظلمـات مـا وُعِـدوا بـه؛ النـور التـام يـوم القيامـة..

إنهـم تلـك النخبـة سـعيدة الحـظ؛ أولئـك الذيـن **يحـب الله سـبحانه وتعـالى إيقاظهـم..**

* * *

نعم إنه هو الذي يوقظهم.

لا تصـدق السـاعات المنبهـة الموقوتـة عـلى صـلاة الفجـر.. إنهـا موجـودة فقـط مـن أجـل الأخـذ بالأسـباب. موجـودة فقـط مـن أجـل طمأنينـة القلـب..

ولا تصـدق أنـه التعـود. ومـن عودهـم أصـلاً عـلى ذلـك إن لـم يكـن هـو..؟

وإذا قالوا الهورمونات والغدد والأطوار الدماغية، فليكن ذلك، إنه الله وطرقه المعجزة الغامضة.

إنه هو الذي يوقظهم. عرف دواخلهم فأكرمهم. نظر في قلوبهم ورآها تستحق أن تكون من تلك النخبة التي تذهب إليه في ذلك الموعد الليلي المتأخر؛ موعد الغرام والحب الحقيقي.

علم أن عيونهم قد تنام. أما قلوبهم فلا، تظل ساهرة وتنتظر الإشارة منه، وبينما تروح أعضاؤهم الأخرى في راحتها الفسيولوجية، فإن قلوبهم تمضي قدماً وتبقى على اتصال دائم به..

وعندما تأتي الإشارة منه عز وجل، يتحرك القلب وينقر على الرأس نقرته الموقظة المميزة.. ليوقظ الأعضاء..

نعم، يحدث ذلك، بل إنه كثيراً ما يحدث، ويميز أولئك المنتخبون ذلك، أحياناً- لسبب أو لآخر - لا تدق الساعة. أحياناً لا تكون أصلاً منصوبة، وأحياناً يكونون مرهقين جداً فينسون توقيتها، وأحياناً لا تكون هناك ساعة، وكل شيء يبدو كما لو أن الصلاة ستفوت.. وتكاد تفوت فعلاً، لكن عيونهم تنام، أما قلوبهم فلا، .. وفجأة تأتي تلك النقرة الخفيفة على قاع الروح. تلك الضربة الموقظة الغامضة، فيهبون من نومهم مذعورين، يكاد أحلى موعد أن يفوتهم، ويهرولون في الظلمة متعثرين ببقايا نومهم وبملابسهم وبوضوئهم، ويلحقون الموعد في اللحظة الفاصلة، قبل أن يفوتهم..

ليس هذا نادر الحدوث. على العكس، وكما قلت:إنه كثيراً

ما يحدث..

لقد نظر إلى قلوبهم فعلم ما في داخلها، وأيقظهم.. هو الذي أيقظهم.. فهبوا ولبوا وهرولوا..

* * *

وإذا حدث أنهم لم يستيقظوا، فلن تتخيل الأسى والكآبة التي سيواجهون بها بقية يومهم..

شيء مرير، كالعلقم سيظل طعمه معلقاً في أفواههم..

شيء أكبر من الندم. أقوى من الحسرة، سيظل هناك في لا وعيهم، يعذبهم بطريقة شريرة، كلما صادفهم عارض أو مشكلة، هزوا رؤوسهم مع أنفسهم، وقالوا: نعم، **لقد أخلفنا الموعد..**

لاشيء سيعوض ذلك إلا الموعد التالي.

إنها وجبتهم الأساسية، لا غنى لهم عنها، ستظل أرواحهم جائعة، لا شيء يشبعها من بقية الوجبات التي ستبدو هزيلة مقارنة بموعد العشق الليلي الذي أخلفوه.

و كما (الكافيار) وجبة النخبة المترفة الأساسية، فإن الفجر وجبة هؤلاء الأساسية، ودونها سيكون الجوع .. وسيظل ذلك الجوع في أرواحهم، يأكل قلوبهم حسرة وندماً وألماً، ولأن ذلك سيكون حقيقياً وصادقاً، ولأنه نظر في قلوبهم وعرف بوجوده.. فإنه سيوقظهم..

* * *

فلا تقل أبداً- ولا يقل أحد ولا أقول أنا:- إنك كنت متعباً جداً فلم تستيقظ.

لو كنت جادّاً، لأتعبك جداً ألاّ تستيقظ.

لو كنت جادّاً، لنامت عيناك وبقية أعضائك، لكن قلبك كان سيظل ساهراً ينتظر.

أقول لك، ونفسي أحق أن أقول لها: لو كنا جادين، لأيقظتنا تلك اللمسة الغامضة التي نعرف مصدرها، تلك النقرة الخفيفة - كالصداع - التي تنقر على الرأس، تلك الضربة الخفية التي تقرع قاع الروح.

لو كنا جادين، لأيقظنا، هو الذي يعلم دواخلنا، وينظر في قلوبنا.

لو كنا جادين، لأبقانا في تلك الطبقة - النخبة - التي يختارها ليوقظها ولتكون هناك في ذلك الموعد..

ولو كنا جادين، لأتعبنا جداً أن ننزلق عن ذلك الاختيار..

* * *

ورمضان يجر الناس جراً ليكونوا من تلك النخبة..

ليجربوا لذة ذلك الموعد وخفاياه وأسراره، وليسطع عليهم ذلك النور التام من المشي في الظلمات.

مثلاً هناك فقرة السحور والترغيب بتأخيره، الأمر الذي يعني أن توقيت الطعام سيكون متاخماً جداً لوقت الصلاة.

وهـو أمـر سـيجعل النـوم المبـاشر صعبـاً بعـض الـشيء؛ مـع ثقـل الطعـام وشـهوات التجشـؤ.

ورهبة الفجر والظلمة مكسورة في رمضان.

فلماذا إذن لا تصلي في الجامع؟.

ويذهبون!.

وبـدلاً مـن أن يذهبـوا إليـه ولـو حبـوأ، فإنـه يـكاد يـأتي إليهـم حبـوأ.

إنه الطُّعم في الصنارة.

الطُّعمُ الذي قد يصير فيما بعد وجبتهم الأساسية.

* * *

السؤال الحزين نفسه .

والجواب المعقد نفسه..

* * *

والقرآن..

أقـول لـك منـذ الآن. لا تتعامـل معـه كالمـرابي اليهـودي، لا تقـف منـذ أول يـوم في رمضـان وتقـول: جـزء كل يـوم، والختمـة المعتـادة نهايـة الشـهر.

لو كان ذلك ينفع، لنفع!.

أقول لك: لا تضع حدوداً ولا حواجز ولا عوائق أمامك..

إنما وضعت التقسيمات – إلى أجزاء وإلى أحزاب – لتسهل الانطلاق (في الحفظ) لا لتعيقه..

فانطلق إذن.. كالمهر الطليق في براري الضياء.. لا حواجز ولا عوائق..

انطلق بلا حدود أيها الفارس العتيق. واستغل أن الخيول تجهل قوانين المرور..

لا (قف) ولا (تمهل) لا (طريق وعر) ولا (منحنى خطر)..

وحلق فيه عالياً، لا تدع النسر الرابض على كتفيك يتقاعد..

لن يرهقك التحليق صعوداً. بل سيريحك، في كل مرة أكثر.

دعه يتقدم في مجاهلك وأغوارك وعقدك ومخاوفك..

دعه يطرد الخفافيش التي عشعشت منذ أجيال في زواياه..

دعه يطرد – بنوره – تلك الظلمة الكئيبة.. وذلك الحزن المقيم..

افتح له نوافذ قلبك، أزح الستائر المسدلة والأغطية العتيقة..

انفض برياحه الغبار المتراكم على صماماتك، ولتغمد الشمس نفسها في حياتك..

فليتقدم- كما الربيع - ليكون فصلك الأساسي والنهائي، بعدما تعاقبت على حياتك الفصول؛ فصل الزمهرير، فصل

الخيبـة، فصـل اليـأس، فصـل السـبات، دواليـك..

ليكـن ربيعـاً لقلبـك: تزهـر فيـه الأغصـان الجـرداء.. وتخـضر الأرض القاحلـة..

وتطلق النوارس فيه صرخات العودة..

أقـول لـك: دعـك مـن حسـابات المـرابي اليهـودي وخـذ الأمـر بشـكل شـخصي جـداً.

اعتبر أنه قصة حياتك. وبين دفتيه اعرف لتغترف..

قـل لنفسـك: نعـم. هنـا وضعـك الله في الاختبـار. هنـا فشـلت. هنـا أزلـك الشـيطان. وهنـا أخرجـك مـن الجنـة.

وقـل لنفسـك: وهنـا هـداني الله. هنـا عـدت إليـه. وهنـا تبـت إليـه وطرقـت أبوابـه، وهنـا قَبِلـني وفتـح لي أبوابـاً مـا أغلقهـا قـط..

وقـل لنفسـك: وهنـا سـوف أهاجـر، وهنـا سـوف أصـبر، وهنـا سـوف أوجـه وجهـي إليـه، أسـلم نفـسي إليـه.

وهنـا سـوف يعـزني بعـد ذلّ. ويقويـني بعـد ضعـف. ويُغنيـني بعـد حاجـة...

ليكـن قصـة حياتـك، تستكشـف فيـه مـا سـيطلع لـك.. ويكـذب المنجمـون دومـاً لكـن يصـدق هـو..

اقـرأه بلهفـة مـن اسـتطاع أن يطلـع عـلى الغيـب ويريـد أن يعـرف مـاذا سـيحصل لـه..

ليكن شخصياً جداً: **لتكن أسباب نزوله، أسباب صعودك.**

عندما تقرؤه دعه يُقرِئك...

لا تدعه كتاباً على الرَّف، ليكن مفتاحك ودرعك ووسادتك وبوصلتك ورادارك..

ولا تكن بخيلاً على حياتك؛ فتحدد وتقسم ولا تقرأ بعدها إلا جزءاً واحداً كل يوم..

بل انطلق، كالمهر الحر، في البراري الفسيحة.

وليكن الأفق سرجك ولجامك..

* * *

وإذا لم يسطع ربيعه على قلبك، فمن تراه في النهاية سينوِّر قبرك؟.

* * *

وإذا لم يكن رمضان هو الذي يجعلك تكتشف في القرآن قصة حياتك، وتقرأ فيه مصيرك وتجد فيه قرارك، فإني متأسف. أظن أنك لن تجد شيئاً في حياتك.

* * *

وأقول لك: وهذه أول مرة يمر عليك رمضان وأنت (غير شكل)، فليكن رمضان هذه المرة إذن (غير شكل)..

* * *

ولا ينتهي رمضان أبداً واستدراجاته..

وفيه - أيضاً- معجزة تتحدى باستمرار، وتتكرر باستمرار، في ليلة ما من لياليه..

وقد حصلت لي شخصياً في العام الفائت. لكني لن أتحدث عن ذلك الآن، ربما في المرة القادمة (إذا كان هناك وقت لمرة قادمة)..

* * *

وأقول لك: هات رأسك، هاته..

رأسك المشوش مثل خلية نحل، المضطرب مثل كرة صوف..

هاته وضعه تحت الماء في المغسلة..

فليغسل رمضان بالماء البارد رأسك ويرحكَ من همومه..

وأقول لك: هات صدرك.. هاته..

صدرك المتعب مثل محكوم بالأشغال الشاقة المؤبدة منذ ألف عام، المنخوب بالهموم مثل جثة محكوم بالإعدام رمياً بالرصاص لم يمت بسهولة..

هاته، ودع رمضان يفك الأغلال.. ويقص القضبان.. ويرتق الثقوب..

هات قلبك، منفضة السجائر وخزانة الهموم، أخرجه من قفصك الصدري، أغطسه في الماء جيداً.. ثم جففه بما لن

تجـد في البيـت مـا هـو أنظـف منـه، غطـاء رأس والدتـك عنـد الصـلاة..

جففه جيداً.. ثم سلمه لرمضان..

* * *

المهم في رمضان ليس رمضان نفسه. بل ما بعده بالتأكيد..

فالمسـألة المهمـة هـي: هـل سـيترك رمضـان أثـراً عليـك، هـل تذوقـت وعرفـت لتغـترف. أم إنـك سـتعود - كمـا كنـت - لحياتـك السـابقة؟..

هـل سـيترك رمضـان أثـراً، هـل سـيحدث فرقـاً، أم إنـه شـهر وكفـى، وبعدهـا تعـود لصديقـك القديـم؛ إبليـس ورفاقـه؟.

لذلك أقول: فتش عن رمضان بعد رمضان..

فـإذا كنـت تجـد أنـك بعـد رمضـان، قـد اقتربـت مـن الله خطـوة، بتلـك الطاعـة هنـا وبـترك تلـك المعصيـة هنـاك، فاعلـم أنـه كان رمضـان..

أمـا إذا لا، وعـدت كمـا كنـت؛ المعـاصي نفسـها والغفلة نفسـها، فاعلـم أنـه لا رمضـان في تلك السـنة..

للأسف: لقد فاتك رمضان..

* * *

صبيحة العيد.

وأنت تقف أمام المرآة، لتتأنق في ثياب العيد..

وأنت تحرص على التفاصيل التي ستظهرك في أبهى صورة؛ تناسق الألوان.. الياقة المنشاة.. طية الثوب المكوية..

كل شيء.

أقول لك: احرص أكثر. ودقق أكثر. وتأمل في المرآة أكثر.

اغرق في تفاصيل الأناقة، ليس في ذلك ما يعيب.

ولكن هناك تفصيل واحد لا تتجاوزه.

أقول لك: تأمل في رقبتك. تحسسها، مد أصابعك وانزل إلى التقائها مع كتفيك..

حدق فيها جيداً. وتحسس أكثر، وتأمل أكثر، وتساءل في صبيحة العيد وأنت أمام المرآة هل أعتقت هذه الرقبة من النار؟؟ أم أن الأغلال لا تزال تسلسلها وتشدها إلى جهنم؟.

هل تحس آثارها الغليظة على رقبتك؟ هل تسمع صوت خشخشتها إذا التفت يميناً ويساراً وهَزَزْتَ رأسك بشدة؟.

هل أعتقك رمضان من النار؟ أم أنك وصلت إلى طرفها وكدت تنجو لكن إعادتك إليها عودتك إلى ما كنته قبل رمضان.

صبيحة العيد، لا يزال ثمة أمل، الأيام التالية هي التي ستحدد بالضبط، وتستطيع أن تعرف منها وضعك بالضبط، هل نجوت أم أنك لا تزال في القعر هناك؟.

الأيام التالية هي التي ستحدد: هل ولدت من جديد في رمضان؟.

أم أن الولادة كانت ميتة، حالة احتضار أخرى؟.

* * *

على باب رمضان أقف وأنتظر مثل أب مفجوع ينتظر أمام باب صالة الولادة.

جزعاً هلعاً فزعاً ينتظر ويترقب.

ويروح ويجيء، ويروح ويجيء، ويروح ويجيء. عيناه معلقتان بفتحتي الباب: تروح وتجيء.

وفتحتا الباب، فتحة تروح وفتحة تجيء، الناس يطلون، ناس تروح، وناس تجيء..

والعالم كله يبدو ساكناً بشكل مروع، لا يروح ولا يجيء.

ويظل هو يروح ويجيء متكئاً على عكازتين، واحدة للقلق، وواحدة للأمل..

الناس من حوله لا يحس بوجودهم ؛لا الذين يحاولون أن يظهروا تعاطفهم معه ومواساتهم له، ولا أولئك الذين لا يبالون به..

إنه لا يراهم.

إنه لا يرى شيئاً سوى فتحتي الباب: فتحة تروح، وفتحة تجيء..

ومن بين كل الأطفال في العالم أولئك الذين ولدوا، **وأولئك الذين لم يولدوا بعد، لا يرى سوى واحد: هو طفله،**

وأمـه معـه..

أي شيء آخر سيطوح بحياته في الفضاء..

ويـروح ويجـيء، وكلـه آذان تريـد أن تلتقـط مـا يـدور هنـاك خلـف فتحـتي البـاب الـتي تـروح وتجـيء..

ويحسـب كل صيحـة عليـه. ويحـار في تأويلهـا؛ تراهـا صرخـة احتضـار، أم صيحـة ولادة..

ويـروح ويجـيء. ويطحنـه هـذا الأمـل الـذي يـروح، والقلـق الـذي يجـيء..

وفجـأة. وكمـا لـو أنـه لـم يكـن يتوقـع، يطـل وجـه معـين مـن خلـف فتحـتي البـاب الـتي سـتكف عـن الـرواح والمجـيء..

ويعرف أن الدور دوره..

ويكـف العالـم عـن أن يكـون.. يتقلـص ويصـير معلقـاً- مثـل طـير ذبيـح - بكلمـة سـتخرج مـن هـذا الوجـه.

تتجمـد الدمـاء في العـروق. يخفـق القلـب خفقـة أخـيرة ووحيدة وطويلـة مثـل إشـارة اسـتغاثة صـادرة عـن سـفينة غارقـة في محيـط خال..

وبـين الصمـت والـكلام، وبـين السـكوت وحركـة اللسـان، هنـاك سـتكون لحظـة طويلـة كالأزل، مؤلمـة مثـل الأجل..وبعدهـا، سـيكون خـبراً واحـداً- يجـيء ولا يـروح - سـينهي ذلـك كلـه..

* * *

وعـلى بـاب رمضـان أقـف أنتظـر، وأتسـاءل ترانـا ولدنـا مـن جديـد هـذا (الرمضـان).. أم أننـا لـم نولـد بعـد؟.

ترانا عتقنا ونجونا، أم أننا بقينا هناك محبوسين في القعر؟..

وعـلى بابـه زحـام، نـاس ولـدوا مـن جديـد، وكل عـام يولـدون مـن جديـد.. إنهـم يتمسـكون ويتشـبثون ويـزدادون ثباتـاً عامـاً بعـد عـام...

وآخـرون، لـم يولـدوا بعـد، لكـن فرصتهـم لا تـزال قائمـة، وبابـه لا يـزال مفتوحـاً-إن بابـه لا يغلـق أبـداً..

وآخـرون، لا يبـدوا عليهـم أنهـم سـيولدون قـط. ولا يبـدو أن ذلـك يلقـى اهتمامهـم، إنهـم سـادرون في غفلتهـم وفي موتهـم الـذي يجهلـون..

ونحن؟.

لا أدري. لا أزال أنتظر..

* * *

وأقول لك:مد يديك وساهم في هذا المخاض.

ساعد الآخرين الذين لم يولدوا بعد على أن يولدوا..

مـد يديـك لهـم وسـاعدهم وانتشـلهم مـن ظلمـة المسـتنقع الآسـن..

ولا تقـل لي مـا تعـودت أن تقولـه مـن قبـل: الأمـر أسـهل في رمضـان ..

أبواب مفتوحة وأخرى مغلقة وشياطين مصفدة..

والصنارة.. والطُّعم..

الأمـور أسـهل، فأرشـد النـاس وخـذ بأيديهم..وشـارك في مخـاض الذيـن لـم يولـدوا بعـد...

* * *

(أَيَّامـاً مَعْـدُودَاتٍ فَمَـنْ كَانَ مِنْكُـمْ مَرِيضـاً أَوْ عَـلَى سَـفَرٍ فَعِـدَّةٌ مِـنْ..) [البقـرة: 184/2] .

نعم. صحيح، أياماً معدودات.

لـو لـم يكـن في رمضـان إلا هـذه الحقيقـة يكرسـها في نفوسـنا ويوضحهـا في عقولنـا ويجليهـا في قلوبنـا، لـكان ذلـك كافيـاً جـداً..

ولكفى به موعظة..

لـو لـم يكـن فيـه إلا هـذا الإحسـاس؛ يجعلنـا نحـس بالعمـر يتفلـت مـن بـين أصابعنـا، لـكان ذلـك كافيـاً جـداً.

ولأن رمضـان شـهر كامـل؛ فيتثاقـل سراً مـن يتثاقـل. ويتضجـر جهـراً مـن يتضجـر، إنـه شـهر كامـل، ثلاثـون يومـاً..

لكنـه فجـأة يدخـل مـن هنـا، ويخـرج مـن هنـاك، ومـا تـكاد تقـول كل رمضـان وأنتـم بخـير حـتى تجـد نفسـك تعيِّـد الآخريـن وتقـول: كل عـام وأنتـم بخـير..

بالضبـط.. أياماً معـدودات. وهـا هو العيد يـأتي كلمـح البصر، وما كان يبـدو كشـهر طويـل مـرَّ كغمضـة عـين قبـل أن تفهم منه شـيئاً.

وبعـد أيـام معـدودات أخـرى سـيأتي رمضـان الـذي يليـه، وبعدهـا أخـرى معـدودات وبعدهـا الـذي يليـه..

وهكـذا، أيـام معـدودات مـا تعتـبره طويـلاً جـداً؛ العمـر بأكملـه..

رمضـان يقبـض عليـك متلبسـاً بهـذا الشـعور. يعتقلـك أول الشـهر وأنـت تفكـر مـع نفسـك: ثلاثـون يومـاً، مـا أطولهـا! ثـم يقتـادك إلى مـا يبـدو أنـه الجملـة التاليـة عـلى الفـور: مـرت ثلاثـون يومـاً، مـا أسرعهـا!

رمضـان يقـول ذلـك: انتبـه، هـذا العمـر الـذي تأمـل في طولـه لـن يكـون في النهايـة إلا مثـل هـذا الشـهر: أيامـاً معـدودة، تمـر بسرعـة، ولأنـه يـأتي مـن هنـا ويخـرج مـن هنـا، وتـكاد لا تشـعر بـه وهـو يمـر كغمضـة عـين، كلمـح البـصر..

رمضـان يقـول لـك: هـذا العمـر يتفلـت مـن أصابعـك، مهمـا حاولـت التمسـك بـه يفلـت منـك، لا شيء يوقفـه، لا شيء يمنعـه.

رمضـان يقـول لـك: عمـرك كلـه، هـذا الـذي هـو رصيـدك، **هـو محـض أيـام معـدودات.**

عـد قليـلاً، وقبـل أن يغالبـك النـوم، سـتجد أن عمـرك قـد انتهـى..

رمضـان يقـول لـك: رمضـان أيـام معـدودات. وعمـرك في النهايـة ليـس إلا أيامـاً معـدودات. وأحلامـاً معـدودات. وخيبـات معـدودات. وفرصـاً معـدودات. وصداقـات معـدودات.

كل شيء فيـه قابـل للعـدِّ والإحصـاء. فـإذا عددتـه لـن تجـده

إلا.. **(معـدودات).**

ومنـذ أن تولـد، منـذ أولى صرخـات الـولادة، ويـأتي أحدهـم ليقلـب السـاعة الرمليـة، ويبـدأ الرمـل بالانهمـار مـن الخانـة الزجاجيـة العليـا الممتلئـةإلى الخانـة السـفلى الفارغـة.

ومـا هـي إلا أيـام معـدودات، حـتى تفـرغ الخانـة العليـا، وتمتـلئ السـفلى.

.. وينتهي الأمر.

ويحدث ذلك كله بسرعة جداً. محض أيام معدودات.

رمضان هو تلك (البروفة)، على تلك الأيام المعدودات.

* * *

يا صديق،

وأحيانـاً أقسـو عليـك، وأنـت تعـرف أن ذلـك مـن حـرصي عليـك، وأنـا أعـرف أن قسـوتي هـذه - أحيانـاً- ليسـت عقلانيـة ولا مـبررة.. وأعـرف أيضـاً أنـك قـد خطـوت - في ثمانيـة أشـهر، هـي كل رصيـدك الآن - خطـوات واسـعة، جعلـت هـذه الأشـهر الثمانيـة أشـهراً ضوئيـة خـارج مقاييـس الزمـن التقليديـة، وعـلى الأخـص خـارج مفهـوم السـاعات الرمليـة - للزمـن.

لذلك أقول لك: اعذرني. واغفر لي قسوتي في بعض الأحيان.

أقـول لـك: اعـذرني، فعـذري أن إحسـاسي بالأيـام المعـدودات يجعلـني في أحيـان كثـيرة نزقـاً متوتـراً سريـع الغضـب والتهـور.

إنـني أشـعر بالزمـن يتفلـت مـن أصابعـي- وأيضـاً مـن أصابعـك - وأحـس أن وقـتي بـدأ ينفـد - ووقتـك أيضـاً - وشـعوري هـذا يشـدني مـن شـعري وبقسـوة، ويجعلـني (أحيانـاً فقـط!) متوتـراً مشـدوداً.

ووقـتي ينفـد، ووقتـك ينفـد، والكلمـات تزدحـم في فمـي، ولا أكاد أجـد وقتـاً لأسـطرها عـلى الـورق، ولا الشـجاعة لأقولهـا.

وتتزاحم في فمي كلمات لم أقلها، تكاد تختفي..

ولذلـك أتـصرف أحيانـاً بمـا يبـدو مـن الخـارج أنـه مزاجيـة ونـزق وسرعـة غضب.

عرفت لماذا؟. لأنني مخنوق. لأن الكلمات في فمي تخنقني.

* * *

وحـدي في محطـة قطـار غامضـة ونائيـة ومهجـورة .. القطـار الأخـير المنطلـق منهـا يـكاد يرحـل، وأحـاول اللحـاق بـه، أقفـز من دكـة المحطـة العاليـة وبـين قضبـان السـكة الحديديـة. أركـض لألحـق بـه. أكاد ألحـق بـه. لكنـه يـسرع، ولا أجـد فيـه مقبضـاً تمسـك فيـه يـدي..

وصـوت صفـيره يـكاد يصمُّـني، الدخـان المنبعـث منـه يـكاد يخنقـني..

ويكاد يرحل، وأحاول اللحاق به..

* * *

وأشـعر بنفـسي مشـدوداً عـلى عقـارب سـاعة هائلـة، تكاتهـا تـكاد

تحفر في رأسي، أحسها مثل قنبلة موقوتة محشورة بين تلافيف دماغي. كل لحظة أقول لنفسي: ستنفجر الآن، ستنفجر الآن.

ولم تنفجر بعد. لكنني أعلم أنها ستنفجر في آنٍ محتوم..

نعم. الوقت يدركنا معاً يا صديق. وأنت تدرك ذلك (ربما أكثر مني، لكني أحسه أكثر منك) وبين إدراكك وإحساسي سيصفِّر الحكم معلناً انتهاء المباراة..

نعم. إنها أيام معدودات، مهما طالت سيحدث ذلك.

ولأني أعرف أن ما حدث منذ البداية لم يكن مصادفة ولا اعتباطاً – حاشا لله أن يفعل ذلك - فإني أعلم أن علي أن أقول كل ما علي أن أقوله قبل أن ترحل – علي أن أؤشر هنا وأن أغرس هناك وأترك أثراً هنا وعلامةً هناك.. وإذا لم يحدث ذلك – أعني إذا أدركني الوقت ومضى قطار الأيام المعدودات قبل أن أفعل ذلك، فإني سأعلك الندم بقية عمري، وسيظل يعذبني ذلك، وسأظل أتحسر على كل ذرة رمل فاتتني وانهمرت من الخانة العليا في الساعة الرملية دون أن أحولها لتصير تربة خصبة.

عليَّ أن أقول كل ما علي أن أقوله، ليس لدي خيار في ذلك، الأمر أكبر منك، بالضبط كما هو أكبر مني، وعما قليل، بعد أيام معدودات، سيتبخر الشيء الشخصي في الأمر، ويبقى ما هو عام.. وتصير هذه الكلمات –والأوراق المعدودات – ليست لك وحدك، وليست مني وحدي.. وإنما.. من آخرين.. ولآخرين.

وكل ذلك، في أيام معدودات؛ علي أن أستغلها أجود استغلال.

* * *

يا صديق..

كل حياتنا هي أيام معدودات، ولو تأملت الآن قصة حياتك ورحلتك فيها، لوجدت أن الزمن يفقد هيبته مثل متسول يدور على الأبواب، وكان في أيامه عزيز قومه..

لو تأملت وفتشت، وقلبت وفكرت، لتعجبت: هل حقاً انقضت عشر سنوات منذ ذلك الحدث؟. هل حقاً انقضى خمسة عشر عاماً على ما يبدو كأنه البارحة؟ هل حقاً انقضى عشرون عاماً منذ أن كان كذا؟.

كثيراً ما نقول: كأنها البارحة.

وهذا حق. إنها أيام معدودات، والزمن فيها عزيز قوم ذلّ..

وبعد عشرين عاماً، ربما سنقول أو سيقول غيرنا الشيء نفسه على هذا الحاضر الذي يبدو اليوم طويلاً عريضاً..

لكنه أيام معدودات، والزمن فيها .. عزيز قوم ذلّ..

وأقول لك: بعد قليل – أيام معدودات، ستحزم حقائبك أنت وترحل، وسأحزم أنا أمري أبقى، وسنحزن - لأيام معدودات - من أجل الفراق، ثم ستأخذنا مطحنة التفاصيل لأيام معدودة أخرى فننسى أو نتناسى وتدفننا حياتنا لأيام معدودات أيضاً، وبعدها، وكما سيحدث للجميع، سأذهب أنا، وستذهب أنت، وسيحملوننا كلّاً في تابوته، وستعلو أسماؤنا لافتاتِ النعي السوداء المعلقة لأيام معدودات.

وسيبكي علينا أحباؤنا وأقاربنا لأيام معدودات على الأكثر، ثم ستأخذهم مطحنة التفاصيل التي أخذتنا من قبل،

وسيجدون في النسيان نعمة تلهيهم عنا، لأيام معدودات، وبينما نحن هناك في قبورنا، وعندما يأتي الربيع التالي، سينمو العشب فوق قبورنا، مستفيداً بالتأكيد من المركبات العضوية التي تحللت أعضاؤنا إليها ورؤوسنا..

إنه أمر مرعب بالتأكيد.. وأكثر شيء مرعب فيه أنه حتمي لا فرار منه.

* * *

لكن العشب على القبور لن يكون نهاية المطاف.

ففي النهاية جداً سنتعرض لذلك الاختبار الذي سيبين هل **كانت حياتنا محض سماد عضوي لعشب عابر وتافه، أم أننا استطعنا أن نترك أثراً أفضل - واستطعنا أن ننتج ثماراً مفيدة لنا وللآخرين من بعدنا.**

لذلك أقول لك، **ما دام العشب العابر النامي هناك يترصدنا، فلنحاول أن نثمر شيئاً،** وما دام الوقت يحارب ضدنا، فلنحاول أن نكسبه، ما دمنا نقدر.

وما دامت رؤوسنا ستكون **سماداً عضوياً للعشب التافه النامي فوق القبور،** فلتكن أيضاً بالإضافة إلى ذلك سماداً روحياً للثمر؛ القادم لا محالة.

كيف؟. أقول لك: فليتحمل رأسك رأسي، ولنكسب أنا وأنت في أيام معدودات هذه الأوراق المعدودات. سأذهب أنا، وستذهب أنت، ولكن ستبقى هي، وستتناسل هي. وستتفجر ذات يوم هي.

أقـول لـك: بيقـين تـام؛ لأني أعـرف **أني أكتبهـا مـن أجلـه، وسأستودعها عنـده، وهـو جـل وعـلا لا تضيـع الودائـع عنـده.**

أقـول لـك بيقـين، **في هـذه اللحظـة ذاتهـا وأنـا أكتـب، هنـاك أطفـالٌ يولـدون الآن سـيقرؤون مـا أكتبـه ويهـزون رؤوسـهم موافقـين.. نعـم لقـد حـدث ذلـك.. لـم يضيعهـا الله.**

وهنـاك **آخـرون، لـم يولـدوا بعـد - ربمـا منهـم أولادك،** سـيقرؤون مـا أكتـب وسـيتفاعلون معـه. وسـيضيء تفاعلهـم حياتَهـم وحيـاة الآخريـن قربهـم..

وكلهـا أيـام معـدودات، ويـأتي رمضـان، فيكـون (غـير شـكل) بالنسـبة لهـم، وتعلـق الصنـارة، ويتذوقـون الطعـم، ويعرفـون لذتـه، فيغترفـون منـه بقيـة أيـام السـنة، ويغطسـون في ذلـك النهـر الجـاري، وتعلـق قلوبهـم كالثريـات السـاطعة في سـقوف الجوامـع.. وينتمـون لتلـك الطبقـة العليـا، طبقـة الـ 1% الـتي سـتزيد بالتدريـج.

نعم، كلها أيام معدودات، ويحدث ذلك.

وبعدها، كلها أيام معدودات ويكون ذلك في ميزان حسناتي.

وأيضاً ميزانِ حسناتك ؛ برحمة الله وفضله.

تسألني كيف؟.

لا أعرف التفاصيل. ما المسؤول بأعلم من السائل..

لكـني أعـدك، عندمـا نلتقـي وإياهـم، **أولئـك الذيـن لـم يولدوا بعـد،** في ذلـك اليـوم المحتـوم الموعـود، فـإني سأسـألهم:

ولعلهـم سـيجيبونني.

عندمـا يتعلـق الأمـر بمـا سـيحدث لنـا، **الذيـن لـم يولـدوا بعـد** يعرفـون أفضـل.

* * *

أتـرى؟ لأن الأمـور تتزاحـم في فمـي، فـإني وأنـا أتحـدث عـن رمضـان نسـيت أن أتحـدث عـن الصيـام.

إنها الحقيقة المُرَّة.. كلما قلت شيئاً غابت عني أشياء..

* * *

وقبل أن أنسى: كل رمضان وأنت بخير..

أعني: كل رمضانٍ ورمضانُ حقاً رمضان، يا صديق.

عن مبادرة قيام – القرآن لأمة قائمة

هـذه المبـادرة هـي المظلـة الرسـمية الراعيـة لأعمـال الدكتـور أحمـد خـيري العمـري.. المقـروءة والمسـموعة والمرئيـة والنشـاطات الفكريـة الملازمـة وهـي الـتي تمتلـك حقـوق نـشر وتوزيـع أو إعـادة نـشرو توزيـع جميـع الأعمـال القديمـة والصـادرة حديثـا وبـكل اللغـات وبكافـة أنحـاء العالـم.

إصدارات الكاتب:

- البوصلة القرآنية
- ليلة سقوط بغداد
- سلسلة ضوء في المجرة (صدر منها):
  كش ملك
  أدرينالين
  يوم، شهر، سنة
  الذين لم يولدوا بعد
  تسعة من عشرة
  غريب في المجرة
- الفردوس المستعار والفردوس المستعاد
- أبي اسمه ابراهيم (رواية للناشئة)
- سلسلة كيمياء الصلاة (5 كتب)
- ألواح ودسر
- استرداد عمر من السيرة إلى المسيرة
- سيرة خليفة قادم

بخصوص النشر والتوزيع الرجاء مراسلة المبادرة على quran4qyam@gmail.com